

Princeton University Library



32101 075811776

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

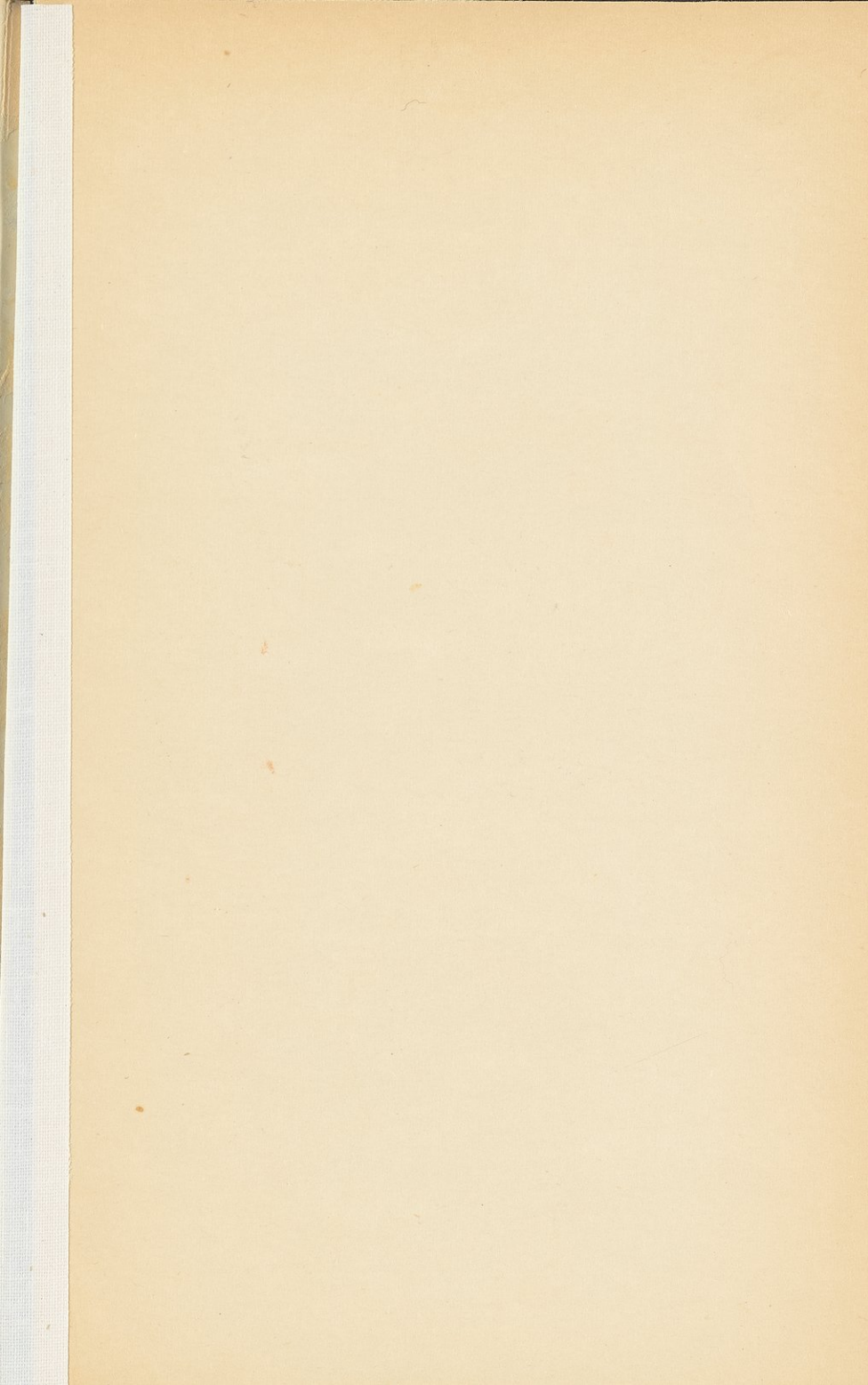
*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

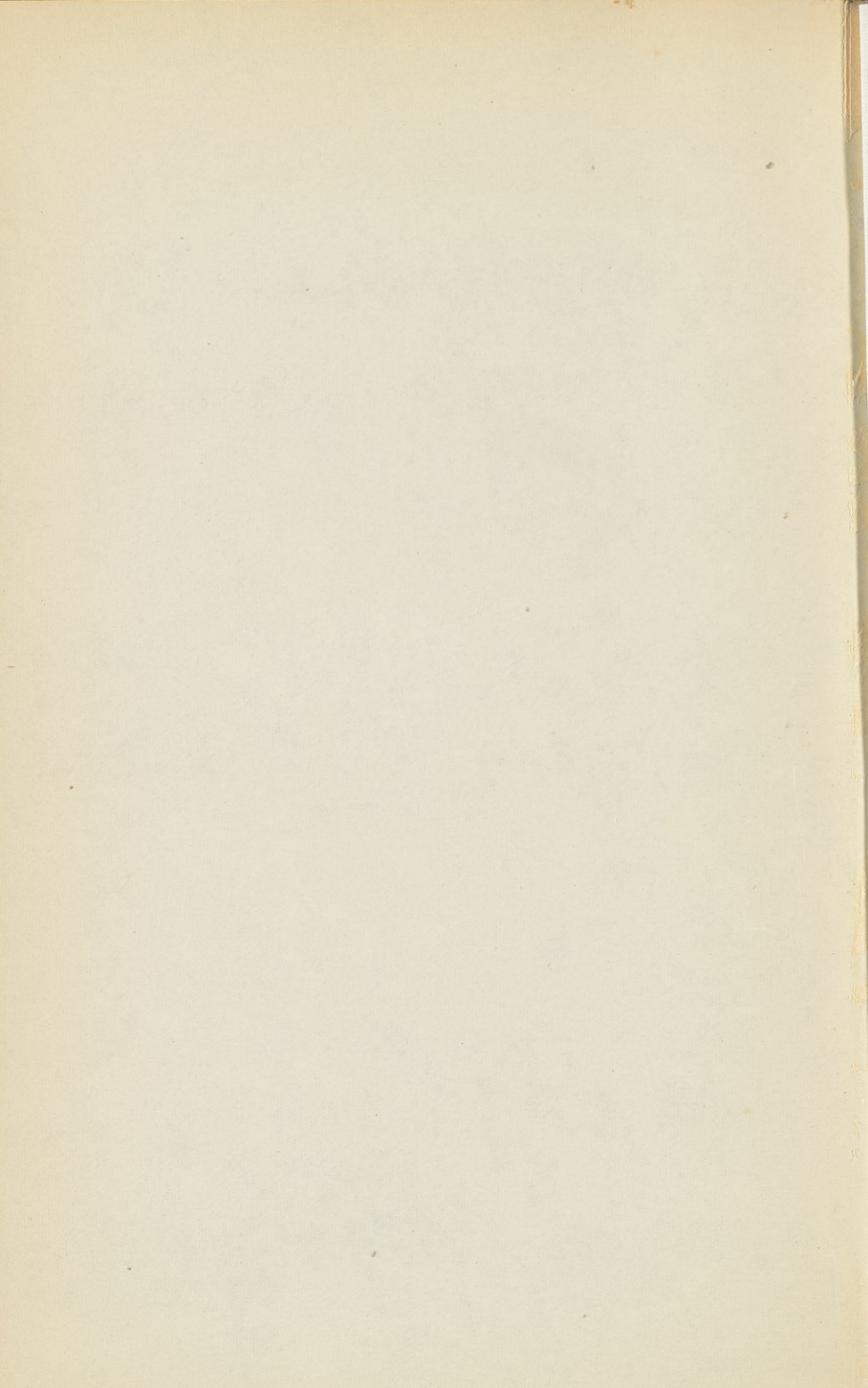
DUE JUN 15 1991

DUE JUN 15 1992









السَّكِّ

سلسلة المؤلفات الأدبية

السد

رواية في ثمانية منبأط

Mas'ad

بقلم

محمود المسدي

رسوم حاتم المكي

شركة النشر لشمال إفريقيا

تونس ١٣٧٥/١٩٥٥

(~~Arab~~)
P57846
.A858
1955

طبع من هذا الكتاب زيادة على الطبعة الاعتيادية
١٠٠٠ نسخة ممتازة

جميع الحقوق في جميع البلدان محفوظة للمؤلف

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>



32101 014111700

مفتوحة

١

«أتشرف بتقديم هذا الآثر الفني الخالد لقراء العربية»
بمثل هذه العبارة الجوفاء تقضي التقاليد أن استهلّ هذه
المقدمة .

ولكنني حريص على أن أدفع عني - منذ البدء - ذلك
«الشرف» ، وعن هذا الآثر الفني ذلك «الخلود» .
أدفع ذلك الشرف ، كي لا يكون غلاً في عتقي
وقيداً لفكري وشلاً لقلمي .

وادفع ذلك الخلود ، لاني أعلم أن صديقي المؤلف لم
يُقبل على سبك هذا الآثر ونحته ، الا «ليحاول» أن يطرح
عن نفسه أزمة لا تتأب نفساً من النفوس دون ان تثير فيها

براكين خفية ، وتجعلها تتجرع الغصة بعد الغصة ، وتكابد
الظلمة بعد الظلمة . فهو أثر من صميم جوهر مأساة الفكر
والحياة . وانه لمن واجب المتحدث عنه أن ينسى المحفوظ
والمبتذل والمعاف من الاساليب ، ليقابل ما فيه من أنات
وحسرات واندفاعات فاشلة بصيحات العطف العميق ودقات
القلب المتوجع ، كاسراً سدود اللفظ الجامد وحيطان العبارة
الضيقة ، ناشداً أوساع الفكر وأبعاده وأعماق الاحساس
المتقعر الحي الزاخر بأقدس ألوان الحياة المضطربة المتلاطمة
مجاريها وتياراتها تلاطم أمواج المحيط الطاهر!...

فهل أنا مخطيء - بعد هذا - ان حرصت على أن أدفع
جميع الطرق المألوفة التي يتوخاها - عادة - من يتولون تقديم
الآثار الادبية لقرائها ؟

فلأدفعُ اذاً بعيداً عني جميع تلك الطرق والاساليب
ولأحاول تجريد قلبي - ما استطعت الى ذلك سبيلاً - من
الالف والعادة حسب تعبير المعتزلة ، ولأطلق العنان لفكري لا
قيد يقيده ولا مراعاة للصدقة تردعه : رائدي الوحيد أن أقول
ما أراه الصواب والحق وأن أعبر عن بعض ما تضطرب به نفسي
من شتى الخواطر والآراء عند قراءة هذا « السد » .

ما تصدّيت لتقد أثر من الآثار الادبية أو الفلسفية
الاصيلة الا ظهر لي ظهور القلعة المنيعة في وجه قائد الجيش الذي
يريد اقتحامها وتذليلها. هي تبدو - أول وهلة - غريزة الجانب
برجالها ومستحكماتها وعدتها ومنعتها ، لا يتناول عليها
متناول الا قابلته بالسخرية الكافرة وبضحك مدافعها المقهقهة
ودممة أبراجها العتيدة... الا ان القائد الفاتح لا يلتفت لسخرية
الابرار ولا لكفر المدافع. هو ينظر اليها نظرة المتحدي ، ثم
ينظم صفوفه ويجّهز عدته ويضرب حولها الحصار ، في أناة وفي
تبصّر وفي ثقة. ثم يقبل على مستحكماتها يقضي عليها الواحدة
بعد الاخرى حتى يكون الهجوم على قلب القلعة...

فليكن شأني من هذا الاثر شأن ذلك القائد من قلعته
ولا نظّر الى مختلف جوانب «السد» جانبا جانبا حتى يكون
من اليسير عليّ - فيما بعد - الآهتداء الى صميم الغرض الذي
تدور حوله مشاهد الرواية وحوارها.

ان أول ما يلفت النظر من هذا «السد» لغته والحرية
المطلقة التي يتنفسها الفكر في فصوله على اختلافها : هما أمران
مستقلان في نظر من اعتادوا أن يقسموا الادب الى أدب لفظ
وأدب معنى ، ولكنهما أمر واحد في نظر الاديب الاصيل

الذي الف ان يصارع اللفظ الى ان يصصره ويخضعه الى ما يريد
من أداء شوارد المعاني ودقائق الاحساس الحي النابض ...

تطالع « السد » فتعجبك منه وتبهرك هذه اللغة العربية
المتينة التي تذكرك باروع عصور العربية وأفصح أساليبها ،
تذكرك بلغة الاصبهاني في أغانيه ولغة التوحيدي في مقابساته .
وهي مع ذلك لغة فريدة في ادبنا العربي قديمه وحديثه ؛ هي
لغة فاتح من الفاتحين في الادب ممن تراهم جديرين بمجد
تجديد نظرة الادباء الى شؤون الفن وأساليب البلاغة .

هي لغة المسعدي ...

أقول هذا من دون أدنى تحفظ ومن دون أن أخشى
خدش « تواضع المؤلف » لاني مؤمن بأنها تفتح للادب العربي
عصراً جديدا وتربط - فوق ظلمة قرون تقهقر النثر العربي -
بين أزهر عصوره الماضية ومستقبله الوضّاح .

تنظر في أخصّ خصائص هذه اللغة فتجد أولا ما يمكن
لي ان اسميه « اقتصادها » او « زهدا » . فما من عبارة الا ولها
معناها الاصيل . فلا زخرف كاذب ولا حشو ولا كلمة تردد
الاخرى : وظيفتها في الجملة كوظيفة مقاطيع الشعر او تفعيلاته
ان اردت ادخال اي تغيير على ترتيبها اختلّ الوزن وانتقى النعم .

في هذا سحر تلك اللغة وسرّ عظيم مفعولها في النفوس :
هي لغة الرمز . ولئن كان هنالك أمر يُغبّط عليه المسعدي فهي
تلك القدرة العجيبة التي ينفرد بها بين أدباء العربية في العصر
الحديث : فهو يعرف كيف يتتقى - لا المعنى الكلي أو المفهوم
الجاف الذي يحدّ أمام نظرك الابعاد ويضيّق على فكرك
المجال - بل « اللفظ الحسي » ينطلق كالسهم نحو « هدفه
المقصود » لا يخطئه ، فاتحاً أمام عينيك العوالم الفسيحة ،
مثيراً فيك زوابع الفكر ومآسي الوجدان . فكأنّ اللفظ -
رغم جماله الفني - لم يقصد لحدّ ذاته ، بل لغرض آخر أُسمى
والطف جوهرأ ... هو كاشارة المذوّم التي يقصد منها احلال
ارادة مكان ارادة واحساس م - كان احساس وشخصية مكان
شخصية ... هو « رمز » للمعنى أو الخاطر أو الشعور الذي ما
كان ليعبّر عنه الا به ... كما لو كان بينهما « مناسبة طليعية »
تكره فكر القارئ على ألاّ يتجه الا الاتجاه الذي اراده
المؤلف كي يشرف على ذلك المعنى أو الخاطر أو الشعور ...
دون غيره .

هو اداة الوصل بين المنظور وغير المنظور ...
وفي هذا أيضا سرّ ذلك الرواء الشعري الخالص الذي
يمتاز به أسلوب المسعدي .

وفي الحق فانه ما كان ليفوز - لولا هذه اللغة الشعرية -
 باحداث ذلك الجوّ الخيالي الصرف الذي يكتنف « السد »
 كله . هو جو الاساطير اليونانية وخيالها الباري!...
 كل شيء في هذا العالم حي نابض ، وكل شيء فيه
 ناطق . قوة « الباري » تتجلى في جميع مظاهره : فالسما ناطقة
 بهوائها ، والجبال ناطقة بمنطقها الصامت الذي « يصغر عنده
 الانسان » ؛ وحتى الحجارة فهي ناطقة وان ظنها « العجم » من
 الناس صامته (ولعل امتع شيء في هذا « السد » هو الحوار بين
 الحجارة!...)

ابطال هذا العالم رجل اسمه غيّلان وامرأة اسمها
 ميمونة... وجبال واودية وهواتف وبغل وذئب... والغريب
 انّ لا غرابة في ذلك ولا داعي للاستغراب : هو الوجود
 وقداسته وحياته الخفية • هو الوجود قد عاد الى طهره الاول •
 كل شيء فيه الى « مصيره » ساعٍ ، بل كل شيء فيه يغني
 اغنيته للتحرر من مصيره والاندفاع نحو ضرب من الحياة اسمى
 واطهر •

فالطهارة هي الجوهر الذي قدّ منه الجو اوحياك مذهبها
 هذا العالم • هي الاطار الشامل للقصة : عصا سحرية اثارته ،

ويد صناعٍ دفعت فيه برجل وامرأة ليشاركا في هذا « السباق الكوني » نحو الطهر ، واحساس فريد عطف على هذا السباق وانصت للحوار الذي دار بين ابطال القصة وتتبع ما كان منهم من اندفاعات واضطرابات نفسية : هذا هو « السد » !

وانك لتلقي بنظرة عامة الى الادب العربي كله فلا تجد اثرا واحداً نفذ لصميم الوجود ، او قل لصميم مأساة الحياة ، نفاذ هذا الاثر الصغير حجماً ٠٠٠ هو من اشد آثار الادب العربي « انسانية » * وانه ليدل دلالة واضحة جلية على ان مؤلفه قد حاول خرق جميع السدول والاوهام وتفكيك دواليب الحياة ومحركاتها الخفية * حاول هذا الامر في جرأة نادرة وحرية فكرية مطلقة : عذره (ان كان لا بد ان تلتبس له عذراً امام قراء العربية) انه فرد اراد ان يفهم الحياة وسبب الاضطراب فيها ، في صدق ودون تدليس او غش او تعليل نفس ٠٠٠

فما هو نصيب محاولته من النجاح ؟ هل اصاب الهدف ام اخطأه ؟ هنا تبدأ محاسنتي له المحاسبة العسيرة !

المفكرون عديدون مختلفون ، ولكنهم موّرعون بين اسرٍ قليلة هي « اسر الفكر » * فالغزالي وباسكال من اسرة

وارسطو وابن رشد وديكارت من اسرة ثانية ***

ولكن تلك الاسر نفسها يمكن لنا ان نصفها باعتبار
قربها او بعدها من اسرتين رئيسيتين تكادان تكونان
كالتطيين في المراقبة والتضاد *

هنالك اسرة المفكرين الذين يتخذون من العقل او
الادراك الصرف وسيلة للمعرفة * ويغلب على افراد هذه الاسرة
المنطق وما يتبع المنطق من مزايا وعيوب : جفاف وصلابة
ووحدة نظر *** وهنالك اسرة المفكرين الذين لا يقيمون
للمنطق ومقاييسه ومفاهيمه كبير وزن : يسعون وراء الحقائق ،
أو قل الحقائق تسعى اليهم ، عن طريق العطف العميق
والاحساس المضطرب والهوى الجارف *

تخاطبك الاولى بالمفاهيم والمعاني الكلية والحجج
والبراهين العقلية * وتخاطبك الثانية بالاندفاعات والوان الحواس
وبروق العاطفة وبراكين الطبع الثائر *

عالم الاولى عالم الآراء المنسقة ، المستنتجة من مبادئ
اولية * وقد يكون عالما عاريا ، بارداً ، جافاً ، فقيراً ، ولكنه
عالم الوحدة والوضوح واستقامة الخطوط *** لا يتساكن فيه
الاما ائتلف وتنادى وانسجم !

اما عالم الثانية فعالمٌ خصبٌ ما امكن الخصب، متنوّع
ما امكن التنوّع • هو عالم الحسّ وبهجة رموزه، وعالم النفس
الصارخة ووثباتها الجاحمة • هي الاحاسيس والصور الخاطفة، لها
كلّ حين انبثاقها وتلاشيها، فجرها وعمتها •

تدخل العالم الاول فلا يتحرّك منك سوى العقل،
ولكن هو الصفاء والانبلاج والطمأنينة • خطاك فيه ثابتة
ثبوت القياس في ظفر استنتاجه •••

وتدخل العالم الثاني فيهتز كيائك كله ويرتج! ••
هو الحماس يتسرب ويشيع في اعصابك وفي احشائك وينفذ اليها
نفاذ الرصاص • هو الشعور الحادّ، وهو الغموض والذهول ما
بين الارض والسماء • هو الدوّار، دوار القمم • وهي الرعشة
او الشطحة • وهو الصراخ يصّاعد من اعماق الكيان كما
يصّاعد عويل الذئب في القلاة، دالاً على وحشة الكون •••

تنصت لاصحاب الفئة الاولى فتجد الفكر الواثق بنفسه
يمدّ - متندداً رصينا - جهاز علاقاته واسبابه وحباله، ليكبل بها
الكون تكبيلاً فينقاد له - مكرها او مختاراً - انقياد الضاري
اذ يسقط في شبكة الصياد • وهذا هو «عقل» الوجود والهيمنة
عليه بالفكر! ••

وتنصت لاصحاب الفئة الثانية فتلغي العجز وما يدل على العجز : تلغي الالهفة والحرقه والحسرة ...

هي أعصاب شدّت كالطبل ، ونفوس غمرها سيل
الحس او الهوى المتدافع المتضارب ، فمزّقها فصارت ثائرة مجدّقة .
هي « الفردية » في ضعفها وفي حدودها الضيقة ، تصطدم
اندفاعاتها بعقبات الوجود وتنظر لنفسها وكأنها « ذرة » من
الرمل ضائعة بين الرمال على الشاطئ المتراعي ، فيتلاشي
« مصيرها الفردي » في خضمّ « المصير الشامل » ، فتنتهي انثناء
العصن أمام العاصفة وتُعول عويل الارامل ! ...

وبعد فهل أنا في حاجة الى أن أقول الآن ان المسعدي
من هذه الفئة الثانية ، وان « السد » أثر من آثار ذلك العويل ؟
هو عويل « منعم » ساحر أخاذ ، ولكنه عويل على كل
حال . ويمكن لنا - من دون تحامل - أن نجعل لهذا الاثر
عنواناً آخر . وقد لا نحتاج الى البحث طويلاً لاكتشاف هذا
العنوان الجديد : هو المؤلف نفسه يشير به الينا في غضون الحوار
اذ يتحدث عن « لحن السواد » .

وفي الحق فانه كان في الامكان ان يكون « لحن الجبور » لا
« لحن السواد » . فالغرض الذي يدور حوله الحوار هو ايمان
الانسان بالفعل ، بالانجاز ، بالخلق ...

وغيدلان هو ذلك الانسان آلى على نفسه أن يكون
« عبد الحياة الصادق الايمان » ، لا يبالي بالعقبات ولا بثنايا
الطريق ومفاجآتها ، ولا بأهوال الجهاد ، بل قل هي تزيد
عزيمته مضاء وبصره نوراً ووثبته امتداداً * . سكنه حلمه
سكنى المقيم * فأنقطع له بكليته وأصبح هو النشيط أبداً
لا يعرف القرار ولا السكون * هو القائل لميمونة : « مستحيل
أن اسكن يا ميمونة أو تسكني ، لان حياتنا مفعمة عقبات
وثنايا وارتحالات وأسفاراً ، خلو من كل وصول ونزول وكل
قرار وسكون ... » * وهو القائل أيضاً : « هذه الارض
المتجعدة المغبار كالعجوز ، لأُهلنّها ماء فأملاًنّ بطنها فأخرجنّ
حياة ... » وهو هو الذي يسخر بالعُجْز مؤكداً : « فرّوا من
الفعل عجزاً وبطلان نفس ... » * وهو هو الذي يحدّ الايمان
بالفعل هذا الحدّ الرائع : « الكفر بالنواميس والعراقل ، وانكار
العجز والاسلام ، ونفي العدم : هو الايمان بالفعل ... »

وانك لتتبع جميع ما يصدر عنه من أقوال من أول
القصة الى آخرها فتجد هذا الايمان يضطرم في فؤاده جذوة
وهاجة منيرة * ما تعرض له بالاشارة او التصريح الا دوت
عبارته بهدير البحر الطامي ساعة المدّ !

ومع ذلك فانك تنظر لقائمة أبطال القصة في الصفحة الاولى فتعثر على هذا التعريف الغريب لغيلان : « رجل ، كائن زائف » . فتعجب لذلك وتعيد النظر في أمره علّك تهتدي لسر « زيفه » وتساؤل نفسك : لعلّ إيمانه بالفعل من باب الاقوال الفارغة والاّ دعاء الباطل (وكثير من مترعمي الفعل من هذا القبيل) . ولكنك سرعان ما تستشف خلال لهجته وحماسة وافعاله كلها - مبتدئها وخبرها - كثر الارادة الصادقة ! ويشدّد استعرابك ، وتنصت لشهادة ميمونة فاذا بها ترمي البطل بالعجز وتتهمه بعدم التبصر في حقيقة ما تسميه « عورة نفسه » . ولكنك لا تطمئن ولا تصدقها ، بل تسيء الظن بها قائلا في سرّك : « أنثى أعيائها جهاد الذكر وأعيائها ما يصبر عليه من عقبات خارجية وأمور عارضة ، وأضناها نسيانه إياها ، فضجرت وارادت الحياة واللذة ... »

ولكن لِمَ تُحمّل المؤلفَ مسؤولية حكم ميمونة؟ لا بد هنالك من سبب . وتساؤل نفسك من جديد : « ما عورة نفس غيلان ؟ »

واذا بسرّ دقيق ينكشف لك شيئا فشيئا : عورة نفس غيلان هي عورة الانسانية قاطبة ، وعجزه هو عجزها ، وبطلان

مساعيه هو بطلان الحياة وحماقة الحياة العابثة ... اذ ذاك تفهم
خيبة « السد » وتفهم أنه رمزٌ لجهاد الانسانية قاطبة ، ورمز
لخيباتها المتوالية رغم انها لا تنفك تعمل وتجهد لغلاب العدم
والانتصار على الفناء • وتفهم أن الانسانية - في نظر المؤلف -
حين يختمر في مهجتها « الحلم » وتأبى الا أن تندفع لتحقيقه ،
وحين يتريّع في وجهها السراب وتأبى الا أن تجعل من
السراب ماءً فجاجاً ، انما هي عمياء لا تبصر أن مساعيها باطلة ،
واضطرابها عقيم ، واندفاعاتها خاسرة ، ورجاءها في الخلود غرور
وسداجة مضحكة ...

يعينك على هذا الفهم سخرية الهوائف بالانسان اذ
تترنم بهذا النشيد :

أنا الانسان ..

مادم الجدُّ

مادام الجهدُ

ما اشتد الغرْمُ

وليد النفس

وليد النارُ

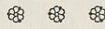
لا ابالي ...

وتعينك على الاهتداء اليه الحجارة اذ تقول هازئة بالبشر:
«هم مفعمو النفوس ايماناً واقداماً وجباً للجهاد» وانهم
لسكاري... يريدون ان يخلقوا!... انهم لا يريدون شيئاً...
انهم يتوهمون انهم يريدون...» وتزيدك بياناً فتقول:
«البشر من عادتهم ان يجمعوا الاوهام والمعتقدات: يؤمنون
بالله وبالشيطان، وبالانس والجان، وبالقبح والجمال... وبالعدل
وبنات السعالى، وبالقوة والخمر، وبالعمل وتمائم السحر،
وبقدرتهم والسدود في الصحاري. انهم لمامون جماعون،
باللهم والجمع مولعون، كأنهم رواة أو محدثون!».

وهنا تتذكر كلام ميمونة، وتفهم قصدها من بعض
عباراتها الغامضة غموض سجعات الكهّان والغازهم. تتذكر
موقفها من السد حينما اضطرّها غيلان الى زيارته، وتبين سرّ
اطراقها وسرّ وجومها وسرّ جوابها لغيلان اذ سألها عن رأيها في
السد فقالت بعد تردد: «اني افكر... افكر في الصدق،
في التجرد، في العراء». وتتذكر بالخصوص قولها لغيلان
بعد حلولها بالوادي: حللنا به «حلول الدود بالثمرة» فالثمرة
الى التعفن والفساد».

تلك هي «عورة» غيلان، وتلك هي عورة الانسانية

قاطبة • خطيئة غيلان هي خطيئة الحياة اذ جعلت من آياتها
 البنات الفعل والانجاز والخلق... وما ثورة المسعدي على الفعل
 سوى ثورته على الحياة • لذلك تراه يعكس الحقائق عكسا
 غريبا فيسمى الجبن صدقا وعراء وطهارة ، والاضراب عن الفعل
 تحريراً للعزيمة ، والسعي في سبيل تحقيق سنة الحياة « عجزاً
 واسلاماً ! »



هل يجب الآن محو آثار هذا التجديف بالحياة ورفع
 صوتي مجدداً مقدساً للحياة ولآية الحياة : الفعل ؟ لو كان لي
 اشراق بيان المسعدي ، وروعة اسلوبه ، واغراء فنّه ، وقدرته على
 بعث الآراء المجردة الجافة جوارى ناعمات وحوراً مائسات تثير
 في النفس ما تثير من صهوة ومن جنون ، اذاً لعدلتُ عن هذا
 « الدفاع » وعن هذه المقدمة الطويلة ، ولحررت « سداً » آخر ،
 ولا بيت الا أن أقدر له في الختام التوفيق والفوز مثلما أبى
 المسعدي الا ان يقدر « للسد » - قبل تحريره - الاخفاق والفشل...
 ولكنني أظن أن ذلك لن يجدينا ولن يجدي الحياة
 نفعاً . ذلك أنه يكون مجرد جعل « منطق » أمام « منطق »
 وعصبيّة « طبع » أمام عصبيّة « طبع » •

أضف الى ذلك بالخصوص أن الحياة تردري التمجيد
ازدراءها التجديف، أو قل ان التجديف والتمجيد لديها سيان.
أعني أن « ناموسها العادل » أو « سنتها الصارمة »
(والتعبيران عندي مترادفان) تستخدم التجديف مثلاً تستخدم
التمجيد أو التقديس وتتخذ منه سلماً للارتقاء . وقد يكون
التجديف - أحياناً - أجدى لها من التمجيد ، اذ يمكنها من
تخطيم « قيم » كانت صالحة لها في بعض الاوقات ثم غار
رحيقها كالماء في الرمل فاصبحت فاسدة عقيماً وتلك هي
سنة صعود الحياة نحو النجوم

ومع هذا فاني لا اريد ان أختم هذه المقدمة قبل ان
أتعرض « للموضوعات » الفلسفية التي ينهض عليها « سد »
المسعدي . فجميع ما يثيره المؤلف - على لسان أبطاله - من
مشاكل حول الايمان والصدق والعراء والتجرد ، وحول الفعل
والحياة والفكر ، يحكي طيران سرب من الفراشات الزاهية
الالوان ، الجذابة المغربية . ولكنه يبعث فيك نوعاً من الحقن
عليه شديداً . هو يثير المشاكل ولا يحلها ، وان حلها فباستناده
الى « مبادئ » او « مقدمات » او « موضوعات » قد لا يسلم
بها دائماً ، وباستغلاله اشد الاستغلال لحقائق رائعة كيقظة الفكر

والطهارة والصدق، مع فهمها فهماً خاصاً فيه قسوة وفيه تعسف
وغلو... ..

من تلك « الموضوعات » ظنُّه ان الحياة اضطراب باطل
وان محاولات الانسانية فاشلة... .. لا محالة • صحيح أن
الزمن يطوي الحضارات الانسانية : فقد طوى حضارة بابل
وأشور ومصر الفراعنة. وطوى حضارة اليونان والرومان وطوى
حضارة العرب... .. وانه لطاوي حضارات أخرى •

الزمن تيار جارف قاس... .. لا يرحم • وحق لليمونة
- من بعض الوجوه - ان تقول قاصة رؤيا رأت فيها « السد »
رمز جهاد الانسانية قاطبة : « نظرت ويلاً شديداً وهولاً •
رأيت الماء غائراً في الهاوية ، أصواتاً مشتبكة كأنها أصوات
الهاوية ، واقفاً فيها كالحلم او الخيال او الامنية تنقع في الابد
فتعريض فيه... .. ولا يرده السد • ولا يحبس منه شيئاً... ..
رأيت سداً من هاجم موتى قد رصفت اكمل ترصيف... ..
رأيت الماء جارياً من الهاجم والمناخر كالمخاط او كالغراء... ..
ولم أر هولا اشد من ببققة تلك المياه في هاجم الموتى وصرخت
روعاء... .. »

كل هذا ينم عن احساس بالوجود صحيح من بعض

الوجوه : جهاد الانسانية بناء هائل ، ولكنّ هذا البناء المرصوص انما رصّ بالدموع وبالعرق الصيب وبالدماء وبجماجم موتى الاجيال . ولكنّ من الباطل ان يقال ان « سدّ » الانسانية لا يجس ماء . . . هنالك صراع بين الانسانية والعدم ، بين الحلم والواقع . وهذا الصراع هو مجد الانسانية ومجد الحياة ، وهو ظفر الانسانية وظفر الحياة . ولئن شمل العدم هياكل الحضارات وجماجم موتاها وجثثهم الهامدة الباردة ، فان « ارواح » تلك الحضارات و « عرائس افكارها » باقية ، حية نامية بارية ! وما اظن ميمونة تقول لغيلان هذا القول : « أومن . . . بالمرمر الصلب والخط المطلق وعود الحياة اليا بس » ، الا لان « روح » الحضارة اليونانية في قلبها قد حلّ . ان في نفسها لشوقاً متلفاً الى ذلك العهد البعيد القريب الذي وُجد فيه من آنكبّوا على الممرر الصاب وعطفوا عليه العطف العميق ناشدين الكمال في الجمال ، والاطلاق في الخط ، والانطلاق والحرية في المادة ، وفي الوجود كله النغم ! ولئن كان هذا حقّاً - وانه لحق مبين ! - فجهاد الانسانية ليس بباطل ، ومحاولاتها ليست بفاشلة . هي خالدة خلود الجهد ، وهي خالدة خلود الدأب الصبور . وحق للانسان

ان ينشد ، دون ان يخشى سخرية ساخر او ازراء زار ، هذه
الايات :

ما دام الجهدُ
ما اشتدَّ الغمُ
وليدُ النفسِ
وليد النارُ
لا أبالي

وحق له الأبيالي : فان في الجهد لنشوة ، وان في الجهد
لقوة ، وان في الجهد لظفرًا .

ولا أنكر ان بطل الفعل يلاقي - احياناً - « ساعات
هولاً » لما فيها من يأس وقنوط ، هي ساعات يبدو فيها
العالم كالبحران ، او كحشرة المحتضر ، هائلة ، مفزعة ،
موحشة ، لا نغم فيها ولا رواء شعر . هي ساعات انكسار ،
وساعات انهيار الاجنحة وانسداد الافق ... ولكن ما هي
الافرة ! هي فترة اللغوب ، وفترة « انحلال قتل الساعد » أمام
ازدحام العقبات وتعدّد الثنايا ومفاجأتها المرة ؛ هي فترة
« ابتعاد » الغاية بعد ان « ظنّنت » قريبة ... ثم اذا بالقوى
تتجمّع ، واذا بها تعود متراصّة تراصّ الحديد ، واذا بالغيوم

تبتدّد، واذا بالنور يعود الى البصر، واذا بالحياة تبلغ الاستجمام،
واذا بالعزم يضطرم كما كان يضطرم من قبل ، واذا بالايمان
بالفعل يشعّ كما كان يشع في البدء : « كاملاً ، مطلقاً ، ليس
فيه ثلّة ولا تصدع » • واذا بمرحلة من مراحل الجهد
تطوّى ، واذا بمرحلة اخرى تنشر ، فتدعو وتغري ملحّة في
الدعوة وفي الاغراء ••• ومن جديد يكون الاندفاع ، ومن
جديد تكون صبوة النار ، صبوة النور !•••

ولكن أنى لبعض « المفكرين » ان يفهموا هذه
الحقائق ! كثير منهم يقبلون على « الفعل » يأساً وقنوطاً •••
لا اقداماً وايماً • يرومون من الفعل السلوان ، يرومون منه
النشوة ، وفاتهم ان الفعل كالمرأة لا تحبوك « كامل » عطفها
و« ملء » انوثتها ، الا اذا قدّمت لها « كامل » حنانك و« ملء »
رجولتك . ويخلف في وجههم الفعل كما تخلف السحابة الكاذبة ،
ولا يقدّم لهم الا زائف اللذة مقابل ما قدّموا له من زائف
الايمان • فيظنّون ان الايمان بالفعل لا بدّ أن يكون
عمى الفكر وذهول الصوفي ••• لذلك تراهم
لا يتصوّرون الفكر الا عجزاً وقعوداً ، ويسمون ذلك
« يقظة حقاً وصدقاً وعراءً وتجرداً » • ولا يتصوّرون

الفعل الا ضرباً من ضروب الغباوة او فراراً من الانتحار •
وينعتون ذلك بتعليل النفس او العجز او الاستسلام لبلادة
الغريزة وبطلان الحياة ••• انفصمت عند هؤلاء الروابط بين
الفكر والحياة، فصار للفكر سُنّة وناموس وللحياة سنة وناموس،
وكان بين السنتين وبين الناموسين تضادّ ونفور ••• وكان
ما لا بدّ أن يكون : الحرص على ان يكون الفكر نفيًا للحياة
وتحرّراً من قيودها : وهو أمر يمكن ان نسميه : « السرطان
الفكري » •

وبعد هل يمكن لي الآن أن استردّ باليسار ما دفعته عن
نفسي باليمين في مستهلّ هذه المقدمة من الشرف الذي ينالني
من هذا التقديم ؟

اني اطالب الآن بهذا الشرف لانه لم يعد مخطراً عليّ
كما كان مخطراً في البدء ••• واني لحريص على ان أعرب عمّا
تضطرب به نفسي من دواعي الغبطة والسعادة حين أرى
الادب العربي يسير بخطى ثابتة نحو « الشؤن الجوهريّة »
ونحو التعبير الصادق عن أصداؤها الحيّة الداوية في النفوس !

تونس •

محجوب بن ميلاد

استاذ الفلسفة بدار المعلمين

كُتِبَ « السدّ » ومؤلفه لم يجرب بعدُ العمل والفعل ،
ولم يكن يأمل اذذاك ان يحين له العمل يوما من الايام . ومع
ذلك فان الفعل هو المشكل الاساسي من هذه الرواية •

وتنتهي القصة فتسفر عن هزيمة غيلان وفشل الفعل •
ثم ان المسعدي يزرع بنفسه بعد ذلك في ميدان العمل ومايزال
يكافح جزيل الكفاح • ولكن عطفًا خفيًا على غيلان بقي
متأصلا في نفسه ، وكأن الحوار مستمر بينهما •

في هذا وذاك ثنائية وتناقض يجعلنا نعتقد ان « السدّ »
قطع عن مؤلفه عقبات النفس ونهج له • من حيث لا يشعر وكان
له بمثابة الدواء - الى حين ؟

وكتب « السد » في فترة جذب كمروج الحلفاء
تنبسط لقيظ الشمس • فآطرح صاحبه الاعراض وهتك الحجب
ولعت فيه نار الفكر القائمة • فاذا المشاكل تقوم لديه جوهرأ
صلداً محرقاً ، لا تبقي ولا تذر • ولكنه لم يستطع ان يقتل
في نفسه الشوق الى « الماء » ، واذا الدنيا توضع فيه من خلف ،
واذا سلوكه هو « المستحيل يُرغم على الامكان . »

وهذه الثنائية قائمة في قلب الحوادث النفسية من هذه
القصة وهي التي تبعث فيها القلق والخرج وتوجهها نحو المأساة :
فغيلان ثائر على واقع يريد تحويله وخلقه من جديد ؛ ولكنه
يؤمن في اعماقه بالحيية والفشل ، وأن الجهود الانسانية « لا
تستطيع لسنة الله تبديلا » ••• وينهار السد •••

تبدأ الرواية عند وصول غيلان وميمونة الى سفح
« جبل اخشب غليظ »... آخرَ عشيٍّ • ويدور بينهما حوار
بسيط مرصّع بكلمات تشير الى ابعاد في النفس وتهيء الجو
الروحي ؛ ككلمات الرحيل ينقطع ، وغروب الشمس
يوافق الوصول ، والتزول بالخيال ... الخ... ويكشف هذا
الحوار عن طبيعتين متقابلتين : ميمونة ترى المسموعات ؛ تنظر
الى الجبل فتسمع صوته يندر ، وتؤمن بالغيب وتوجس في

الكون انذارا • اما غيلان فساخر منطقي الكلام ، يرى ما يرى ويَسْمَع ما يُسْمَع ، ولا يخاط بين مُعطيات الحس المتباينة ولا يقول الا بالواقع . ولكننا نحس وراء هذا التصميم الهادىء بطائف من الارتباك ينازع نفس غيلان فيتحاشاه ويريد ان يلقيه وراء ظهره ويتناساه في زوايا الاشعور ، كالمُتَطِير يأبى ان يثبت ما تكره نفسه . وكأن ميمونة تتكلم بما لا يريد هو الامعان فيه : فهي لا تؤمن بانتهاء الطريق ؛ وهذا القرار الذي يدّعيه مكذوب عندها ، تشبهه بحلول الدود بالثمرة - والثمرة الى التعفن والفساد - وتنسبه الى الخيال الجرفاف يا كل البشر

وفي حنايا الكلام العابت يواجهننا « القلق » ينخر النفوس ، ومسحة من « الاشكال » تلعو الواقع العادي وتثقل وطأته وتصرفنا الى الغيب .

وهذا الاشكال في عالم المسعدي سرّه أن الاشخاص يعيشون موزعة نفوسهم في الآن نفسه بين الواقع والغيب . بل ان الواقع لا يستمد معناه لديهم الا من هذا الغيب المسلط على ابصارهم . غيلان لا يرى الا السد ، يحمله بين جنبه ويسعى الى تحقيقه في وله العاشق الهيمان . وميمونة لا ترى الا الويل

والثبور يتمخض عنهما المستقبل . فالكون مكتظ لديهما حامل ،
يثقله المخاض وتقطعُه الولادة .

وليس احب الى النفس ولا ادعى الى الشغف من هذا
الانكشاف التدريجي لطوية هذين الشخصين . فنحن نتسرب
الى معرفتهما قليلا قليلا في سُعَب الحديث ، ونشعر بان معرفتنا
لهما تزداد نضاعة في كل حين ، من دون ان تمحي تلك الكثافة
النفسية التي يتمثل فيها لغز الانسان الحي لا تحده معرفة ولا
يلمّ به تقدير .

ومن اول القصة تتنزل المشاكل في المحيط الروحي
الديني . وهذه النزعة تلوح في بعض الفقرات العابثة من الحوار .
تقول ميمونة : « تنقض الاعياء ظهور العباد فتتمدد الاعناق
وترتفع الابصار والرؤوس وتكون الصلاة ويكون الدعاء . »
تقصد ميمونة أن الصلاة تنشأ في قلب الانسان حين تداهمه
المصائب ، فالصلاة صلة العبد بخالقه عند الالم والشدة . هي
استغاثة الضعيف بالخالق . وتقوى النبرات الدينية في القصة تدريجيا
وتتضخم حتى تصبح وجها من وجوه مقاصدها ولونا من ألوان
الغيب فيها . يقول مدين في « مولد النسيان » (١) انه ابطل كل

(١) قصة للمؤلف نشرت تباعا في مجلة « المباحث » بتونس

شيء لانه رأى « الآلهة والنفس والاديان والفكر والعلم ،
كالسدود تقام وتجعل لها الحكمة والعقل أساً ، فتنتصب واقية
الوادي من السيل والنفس من الجنون ». فأزمة « مدين »
ثورة على « السدود » وعلى الحواجز والواقع •

هو يريد ان يتحرّر من كل القيود التي تنحصر فيها
حياة الانسان عامّة • وكذلك غيلان : يدعو ميمونة الى
« الكفر بالنواميس والحدود والعراquil وانكار العجز
والاسلام » • وهناك كلمة لم يتلفظ بها غيلان ، الاّ أنها تهيمن
على وجوده وتوجّه سلوكه : هي كلمة الموت • فهو يجهد ان
يتغلب على منزلته البشريّة ليفصم قيودها ويتجاوز حدودها ،
ومأساته انه ميت لا محالة ، يعلم ذلك ولا يستطيع ان لا
يفكر فيه • وهو يتخذ الفعل اداة تكسير لهذا القيد المحتوم
الذي يشوّه القوة ، ويزيّف الخلق ، ويُحجّر الوجود • ومن
هذه الوجهة فسلوك غيلان مغامرة خاسرة من اولها - وهو يعلم
ذلك - الاّ أنه يأخذ على عاتقه ان يناضل وان يصارع •

وليست هذه الثورة منبعثة عن الحاد وتعطيل ؛ بل هي
ثورة على الخطوط الجامدة والمرمر الصلب الذي يخنق القوى
الفردية ويزيّف الوجود • التّوق الى المُطلق هو جوهر

هذه الثورة الفنية • ومعناها الصحيح تحطيم السدود، ونزع
الاعراض، والتجاوز نحو المستحيل •

وثورة غيلان هذه رغم صيغتها الفلسفية
- الميتافيزيقية - تننزل في الواقع الاجتماعي • فغيلان
رافض لعالمه الذي يعيش فيه هو ومواطنوه، يريد ان يغيّر
منزلتهم فيه، بأن يغيّر القيم التي عليها يشيدون حياتهم
وبها ينظرون الى مستقبلهم. وهذه القيم روحية «اقتصادية»
معاً. فالحياة التي تفرضها صاهباء على عبادها تقوم على القحط
والجفاف وليدّي الحرارة والقَيْظ، والناار هي القيمة القدسية
التي بها تطهر حياة «المؤمن» من ميوعة الماء وأدران الرطوبة.
وصلاة المتعبدين المبتهلين لصاهباء ان يستلقوا على ظهورهم
كاشفين عورة اجسادهم للفتح الشمس الزكي، حتى يضربها
القَيْظ، ويجفف ندي نزواتها، ويعيد اليها صلابة المرمر او
براءة الرمال الصادئة. الطهر اذن في عالم صاهباء بالاحتراق
وبأن يعود الحي فحماً بريئاً من خلجات الحياة • فيحترق
الجسم، ويحترق الزمن، ويكون سُبّات الصحاري العارية
الى ربّها. الطهر براءة من «الماء» وانصراف الى غيب مُحرق
كألابد، هو نفى للحياة والحركة.

ويقدم غيلان « البلدة » ، ويرى ما يقاسيه الناس من
 زيفٍ وباطل ، وينكشف له ان حياة ذويه انما هي موت
 بالمعنى قبل الحس ، وأنها انتظار للهلاك ؛ فتقوم في نفسه سَوْرَة
 التحطيم والتقض ، وتتأجج في صدره الثورة على الاساطير ،
 ويعتزم ان يكون نبيّ السعة والنعمة ، وأن يشيّد في هذا
 الوادي البلقع « سدّ مأرب » الذي اعاد الى الارض خصبها
 وبهجتها . فيتصدى لمقاومة الآلهة وصرف الناس عن « الغيب »
 الذي يأكل من ارواحهم ويطعم من وجودهم . ويكون
 تمرّدُه اذ ذاك شبيها بتمرّد « بروميتي » الذي سرق من
 الآلهة سرّ النار وعلمّ الانسان ما لم يعلم . فقد اضطلع هو
 ايضا بأعباء صراع هائل ليتقذ الانسان من القحط والعبودية ،
 ويصرفه عن الحلم بالابد الى الواقع .

ولكن ميمونة تخاف على زوجها عاقبة هذا التمرد
 وهو عندها مهدّم للواقع ، يكرهه ، ويحب الخيال ويعيش في
 الحلم ؛ وترى أن زوجها يتقحّم على مغامرة هائلة سوف
 تكون عليه وبالاً . ذلك أن ميمونة امرأة الممكن تحب
 الحياة كما هي : تأنس الى الكون ، وتلتذ بالوجود على علاّته :
 « هذا الفجر يا غيلان ، وهذا النور كاشهى الطعام ... » . ودعوة

« راکنة ، تختلج رقّة » وشهوة . فهي تعيش في الحاضر
وتضارع الواقع ، بينما زوجها مندفع ، كالوتر المشدود ، نحو
المستقبل .

ولیست میمونة فاقدةً للیقظة التي تهزّ غیلان وتبعثه
على الصراع . وانما هي قابلة للقیود ، مسلمة الى الاقدار ، واقعة
الى العالم ، راضية . تنفي الحركة والاضطراب ، وتخلص من
كل زمان ، تنعم باطمئنان « بوذا » وایمان الانبیاء ، فهي
عين القرار (١) .

وعلى نقیضها غیلان . فهو الارادة تتناظى : يريد ان
یغیّر « کیانه » بتجاوز الحدود المفروضة علیه - اي في الحقيقة
بنفي هذه الحدود . فمیدان الفعل عند غیلان هو العالم الخارجي
الاّ أن هدفه البعيد هو التغيیر من الكيان الذاتي الباطن .
ذلك أن غیلان يريد نفي ضعفه وردء عجزه بالخلق الذي یمنحه
کمال الآلهة . وهذا الخلق أساسه الارادة - وهي جوهر
الالوهية .

وبذلك یظهر ان غیلان ومیمونة یمثلان موقفین من
الحياة على طريفي نقیض : میمونة شرقية تدعن لسنة الكون ،

(١) انظر قصة « المسافر » للمؤلف .

بينما غيلان ينتسب الى « نيتشة » : هدامٌ مقوّضٌ ، يسمو
الى الخلق •

وبذلك ايضا يتّضح المعنى الحقيقي لسلوك غيلان •
فكلُّ من غيلان وميمونة متعلق بالواقع • الاّ أنهما لا يتفقان
في فهم الواقع : ميمونة تحب الواقع الحاضر وغيلان يتوق الى
واقع خيالي ، لمّا يدخل في حيز الكيان ، فهو يروم انشاءه •
الواقع اذن بالنسبة اليه « قيمة » عليه أن يحققها • ولكن شأن
القيم ان تكون جذوةً من نار ، دوماً يهدف اليها الانسان
من دون ان يتصل بها كامل الاتصال • والمرء الذي يسعى
 وراء « القيم » شبيه « بدون جوان » يقضي حياته في
طلب النساء ولا يستطيع ان يتقيد بواحدة منهن • كلاهما
نهم جرّاف ، منزلته التجاوز ؛ وكلاهما يهدف الى سعادة
الهية لا طاقة له بها ، ولا سبيل اليها : وهي السعادة التي
تكون بالتنام الزمن ، حاضره ومستقبله ، في آونة الابد •
يقول غيلان متحدثا الى ميمونة عن رغبته تلك : « ان من
بين الساعات لساعةً يا ميمونة... ساعةً يتصور فيها الممكن
 بصورة الكائن الواقع دون ان يتقيد بقيد ولا يُحدّ بحد •
ويتقلب فيها الامكان والارادة الى قوة من نار وحديد اشد

من كل حديد وقوة : هي ساعة اقصى الصعوبة * وانها لساعة
اعظم من صاهباء وأعلى ، اعظم من السماء وأعلى ، واعظم من
جميع الآلهة وأعلى * انها ساعة الانتهاء ، ساعة تمام الخلق . «
فعملية الخلق تُوقد في نفس غيلان نشوة وجودية
شبيهة بشطحات الصوفيّة * والحق ان غيلان ينظر الى الخلق
والانشاء نظرة صوفية ، ويعتبر أن حياته ارتقاء غير محدود
نحو المطلق * لذلك يكره الحلول والاستقرار ، ويكره
« البيوت الثابتة لا تنتقل ولا تتحرك » ، ويكره ان تذهب
مهجته في ميمونة وان يرضى بها وقراراً : « لأن
اكتفيت بكِ فاكثفتني اني اذن لجان... وقد حذرتك
ان تكوني ظلي وبرودتي ونهاية طريقي » *

فغيلان يعتبر أن حياته طريق ، ويكره ان تكون لها
نهاية لان الوقوف عند « النهاية » جبن * الحياة عملية خلّقية
في جوهرها ، ولا تكون الحياة صحيحة شريفة حتى تكون
مغامرة تضطر المرء الى الخلق والتجديد * فاذا كان المرء في مأمن
من الخطر جمد سيل الحياة وتحجّر الوجود ، وجاء الزيف
والكذب ، وجاء الخوف *

ونرى بذلك ان موقف غيلان من ميمونة كموقفه من

صاهباء : « خطأ هما انهما ثابتتان لا تنتقلان ولا ترحلان » .
وينضاف قيد جديد الى القيود التي ثار عليها غيلان اول أمره :
المرأة تحوّل بين المرء وبين الكون *

على أن لليمونة في حياة غيلان منزلة خاصة * هي من
تلك النساء اللاتي يجدن في الحب قبساً يضيء الحياة ويجعلها
سعيدة مرضية * فلا رغبة لها سوى العيش قرب غيلان . اما
هو فمن صنف الفحول دوماً ينشئون مستقبلهم ، دأبهم المغامرة
وغايتهم الخلق . وهو بحكم نفسيته لا ينظر الى الواقع الا
بقدر اتصاله بعملية الخلق * فالاشياء عنده كالادوات يستعملها
لاغراضه ولا وجود لها بنفسها ، ولا يلتد بقرارتها ولا يدعها
تتسرب اليه فتفجع نفسه وتعمّها . وكذلك الاشخاص عامّة :
يراهم ولا ينظرهم ، ويعرفهم ولا يعلم دخالهم * اما ليمونة
فهي متيقّظة الى الواقع اشد اليقظة ، ويحفظها ذهنيّة حسّية
عاطفية . فهي تحيا الكون وتستبطن الاشخاص ، ولها ذلك
اللطف الحدسي النافذ الى سريرة الاشياء : تتحدّث عن
زوجها فتتقد الى أقاصي نفسه وجبيء نزعاته ، فاذا هو عورة
لديها مفضوح . واذا السدّ غشاء يتستّر وراءه غيلان ويخفي
به عجزه ويلوذ به من معاينة الحقيقة : واذا عورة غيلان عجزه

يحاول اخفاه - وتكتسب كلمة « السد » هنا معنى جديدا :
هو السد الذي به يدفع غيلان عجزه ويأسه وآلام منزلته
الانسانية : « وما احتاج الى سد الا من خشي التجرد وجبن
عن الصدق والعراء ... انظر سدّك كالغطاء يستر عورة نفسك
ويخفي علتها ويوهمك القدرة ويستتر العجز . »

وميمونة تعيش في الحاضر ، والاحرى أن يقال انها
تودّ ان تعيش في الحاضر ، لان غيلان يصرفها عنه كل حين
ويشوش تلك الدعة التي تصبو اليها . فهي ايضا كالمسافر يتوق
الى الواحة ولكنها سراب ما ينفك يبتعد . وجمال ميمونة انها
تنوق الى حياة طبيعية ، خالصة ، تزول معها الحواجز وترتفع
الحجب - وذلك ادبيا وماديا . فهي تكره تلك المشاكل التي
يتخبط فيها غيلان . وتلك العقبات التي يحب غيلان الامعان
فيها ، تمقتها هي وتعتبرها ضربا من الزيف والعجز . تود ان
تركن الى « زوجها » عارية النفس والجسد ، لا عورة ولا
باطل حياء ، وان تقضي اليه يومها الضاحي ، تنعم بسعادة
الروح والجسد متقين ملتئمين : « لو سألتك يا غيلان ان
نبقى يوما بالكهف وان تنزع الثياب وأدع الثياب ، وان
تقضي معاً يوما عاريا خالسا طاهرا لا يفصل بيننا كلام ولا

حركة ولا ثوب ، وأن تجنني ولا تكلمني ، واجبك ولا
أقبلك ، وتمسني ولا تختص بلذة ، وألبسك فلا امتاز
عنك باحساس ... »

السعادة الانسانية عندها موقفٌ ونظرةٌ الى الوجود ، لا
نتيجة عملٍ وفعلٍ •

وكل ما يحدو بغيلان الى الفعل المرهق ، ويجلب اليه
الالم والشقاء ، يمكن ان يحوّل الى اسباب متعة باطنة :
« امكاناتك يا غيلان ، أعلم أنها بديعات نفسك وأنها العدم
يتصور لك ... » •

لكن كلما تحدثت ميمونة الى زوجها هذا الحديث
عيني عن ردّ الجواب وكأنّ كلامها نفذ الى اعماق نفسه كالنصل .
وكان ميمونة اذذاك وجهٌ من وجوه غيلان ، فيها تجسّمت حيرته
وشكوكه . وما الصراع الجاري بينهما الا اشارة الى ثنائية
خفية تقطّع احشاءه . فميمونة اذن فلذة من وجوده ، و«صيحة
الجيرة في نفسه » ، وصوت الواقع الذي ثار عليه فرتج صوته
وشرب على شفتيه الكلمات •

وهي في الآن نفسه ضميره الواعي ، و « العين » التي

تنظر اليه من بُعد ، فتحكم بانه من اهل الخيال الكافرين
بواقع النعمة وآلاء صاهبياء : « فعلى اهل الخيال اللعنة » .

ويسكن هذا الحوار المحترم بين غيلان وميمونة ساعة ،
ويخلقه حوارٌ من نوع جديد بين حجرات ثلاث . وهذا الحديث
يشبه ما ينسبه ادباء اليونان في مسرحياتهم العتيقة الى
« الاصوات » (chœur) تعبّر عن نظرة مجردة الى حوادث
المسرحية . فهذه الحجرات لها الى الاشخاص - والى البشرية
عامة - نظرة اهل « الشعرى » كما يقول الاوروبيون . فالناس
لديهم أقزامٌ يزحفون على وجه الارض كالحشرات ، مائعة
اجسادهم ، فاترة قلوبهم ، مسترخية أعجازهم ، واذا اعمالهم غائصة
في النسيئة الموبوءة : حركة واهتزازٌ ولا معنى ، فهي ضرب
من الجنون . وهذه النظرة ليست بقاصرة او ناقصة ، بل هي
نظرة الابد الى اعمال البشر . فهي نسبة اعمالنا الصغيرة
الحقيرة الى الابد السرمدي . وهي التي تعرّف سلوك البشر
احسن تعريف وانفذه : « يريدون ان يقهروا الآلهة ويقتلوا
العجّز » . وكأن هذا الحديث الذي يدور بين الحجرات تفسير
لما يدور بخلد ميمونة : عمل غيلان عمل « ميتافيزيكي »

يريد ان يُخَرِّج الانسانَ من العجز الى الانسانية الكاملة ، اي
الفعّالية الحق • ولكن غيلان لن يستطيع الى الخلق سييلا ،
لانه لن يخلق الاّ الخيال والوهم • وهو عاجز عن ان يخلق
العاصفة والرعد والزلازل والبرق • فالمعيار الحقيقي للخلق هو
الكون - وغيلان لا يستطيع مضاهاته بحال . فالعجز اذن
جوهره • وهو الى ذلك كائن رجيم ، لانه أراد ان يزاحم الآلهة
فيما اختصّوا به دون غيرهم ألا وهو الخلق . « وقام الكون
فسبّح باسمي اني أنا الخالقة الربّة . »

قد يُخيّل الى القارىء بعد هذا التحليل أن عالم
المسعودي عالم الحية والفشل ، عالم يتجلى فيه عجز الانسان
وبطلان محاولاته الشيطانية •

يجب ان تصوّب هذه النظرة باعتبار رئيسي : هو ان
عالم المسعودي ليس بعالم استسلام ، بل هو عالم ثورةٍ وطلب ،
ومحاولةٍ وعلاج • ولئن انتهت ثورة غيلان بالفشل والهلاك
فلقد حاول وصارع • والكفاح فضل الانسان وشرفه
الاسنى .

فعالم المسعودي اذن عالم « انساني » ، يُشيد بقيمة

الانسان - مع العلم بان اعماله محاولة مآلها الفشل ، وخاتمتها
الموت ، الفناء ، العدم ...

فهل يجب حقاً ان نياس من الانسان ؟ ومن اعماله ؟
لا أظن . هذا العالم القاتم في ألوانه ، المظلم في معانيه ، يشهد
بأنه ناقص مقتقر الى ماسواه . وهذه « المحالية » التي يصطدم
بها الانسان في حياته ، يمكن تجاوزها الى احد منفذين :

يمكن ان يتجاوزها الفرد الى حدس صوفي من نوع
ما ذهب اليه الغزالي : هذا النور الذي يُقذف في الصدر وبه
تعود الصحة وتزول العلة .

ويمكن ايضا للفرد ان يتجاوز جحيم منزلته الضيقة
الى فسحة الامل الجماعي . تقول احدى الحجرات : « هؤلاء
الغرباء أنفسهم يطلبون ، لانهم لا يعيشون غيرها ... ولا بهم
علة غيرها ولا باطن داء ... لذا ابتدع البشر المرأة » .

فعجز الانسان راجع اذن الى تعلقه بنفسه وتمسكه
بالانا وغرقه في صورته التي تؤذيها له امرأة ضميره - كغرق
« نرجس » في مياه النهر السحري . فاذا تطهر من أدران جملته

وكدر هوأجسه ، وتيقظ الى ما حوله ، ونسّق عمله في كتابة
من الجهود وأشاعه ، نجا وسلم ، وارتدّ اليه الوجود صحيحا •

وبعد فان من خصائص الادب الكبير ان يعبر لا عن
مشاكل الفرد فحسب ، بل عن حقيقة مأساة جيل بأسره •
ومأساةٌ غيّلان في الحقيقة مأساة جيل كامل من
شباب تونس في اعوام ما قبل الحرب الاخيرة . طغت عليه
نزعةٌ من نزعات الفكر الغربي تردّ مشكلة المنزلة
الانسانية الى عناصر فردية ، وتحصرها فيها ، ولا تطلب لها حلاً
الا في نطاقها . فتسرّبت اليه قيّمها العاتية واصلفها الرومنطيسي
الوهّاج . فشوّشت دواليب في نفسه ، واشعلت في قلبه الحيرة ،
فقطعت عنه اهلته ، واستأصلته من ارضه . ثم اذا هو يتساءل عن
قيمة سلوكه ، فيعود الى اهلته « كالمسافر » الغريب يسألهم عن
سرّ موقفهم من الوجود وفهمهم للكون ، ويحاسب
نفسه . (١)

السد اذن مرحلة - حاسمة - يجب تجاوزها . لا بدّ

(١) راجع قصة « المسافر » للمؤلف .

للسدّ ان ينكسر - بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد وجماعته •
ولا بدّ من مواصلة الطريق •

اما السؤال عن الطريق ما هي واين تنتهي ، فلا معنى
له . الانسان ينشئ مستقبله ويدحض التوقع • بذلك يمتاز
وتلك معجزته •

تونس ، افريل ١٩٥٤

الشاذلي القليبي

الاستاذ المبرّر في اللغة

والآداب العربية

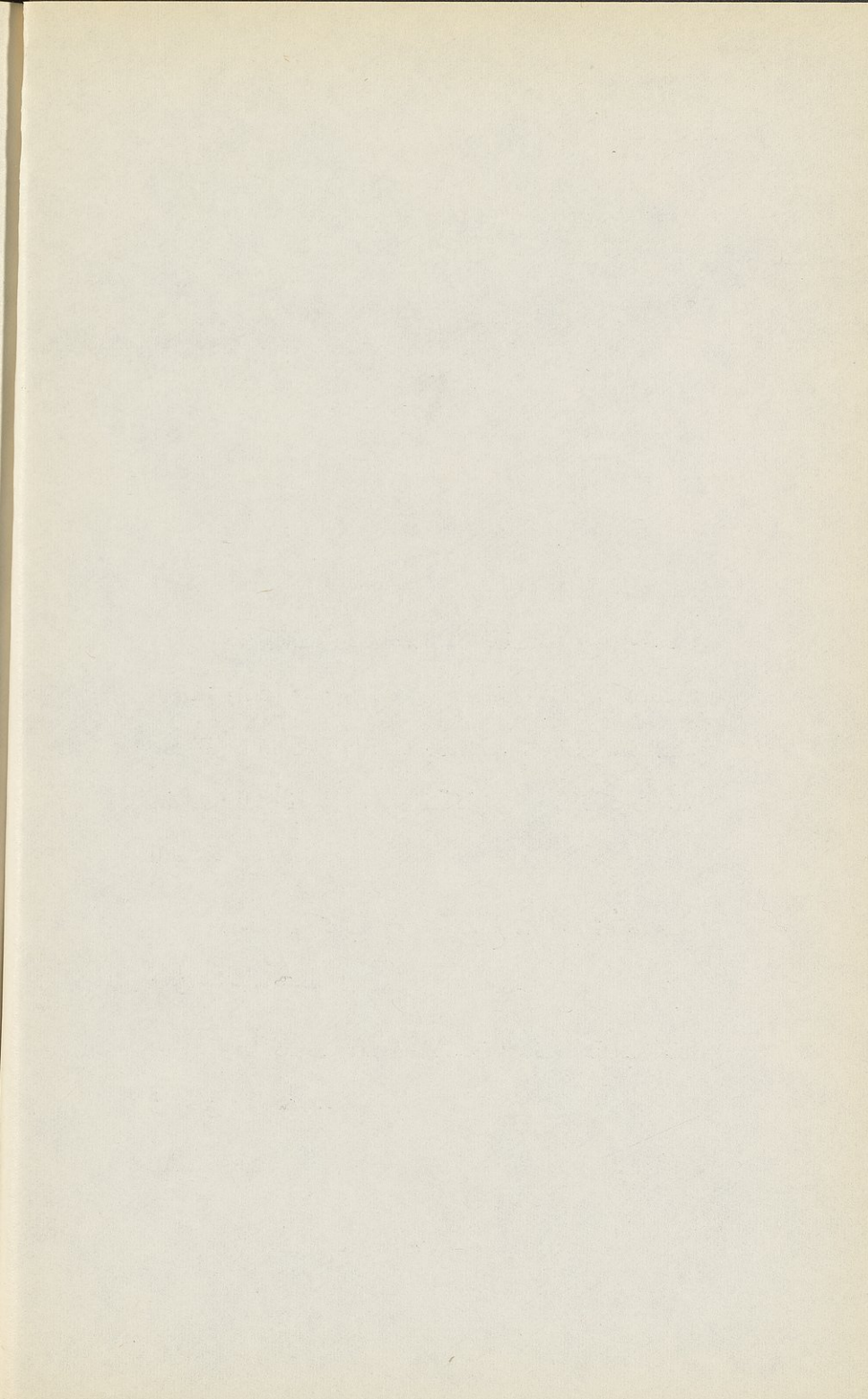
هذا كتابُ أردتُه صدقاً لا يختلف معه وجه الحقيقة في
الوحدة والسرّ ، عن وجهها في الجماعة والعَلَن . كتبته في
عهد انفرادٍ وتأمل ، وامتحنته بعد العِشرة والعمل مع الناس
سنوات ، فلم أَلِفِه في جوهره تنكّر لي ، ولا أنكرتُ منه .
فأخرجته على علاّته .

وبعدُ فهو كتاب الايمان يَسَع من الحيرة أقصاها ،
ومن الشكّ أقصاه .

وهو كتاب الايمان بالانسان ، لانه كتاب الفناء
في الخلق ، في الله ...

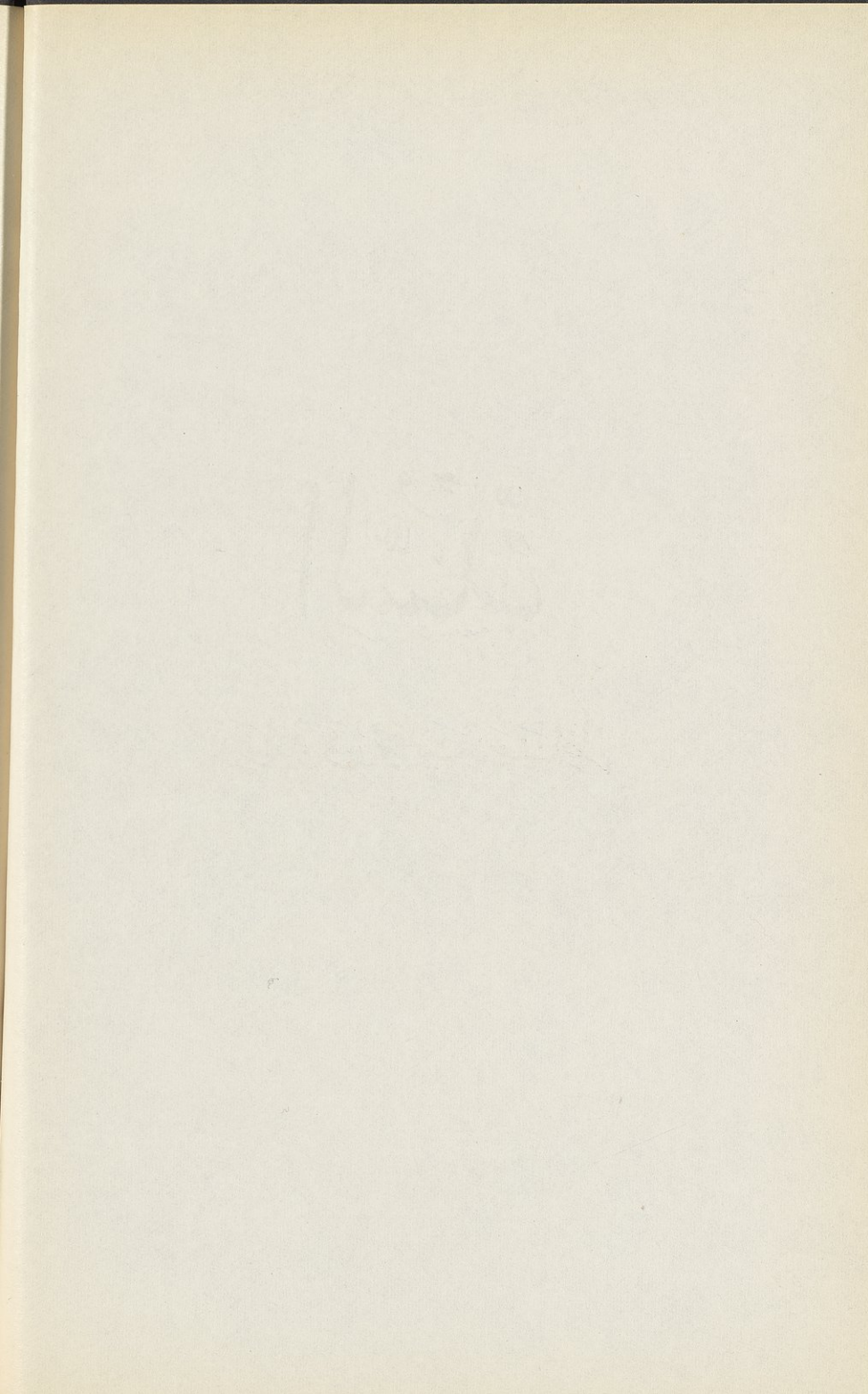
المؤلف

سبتمبر ١٩٥٥



السُّبُكُّ

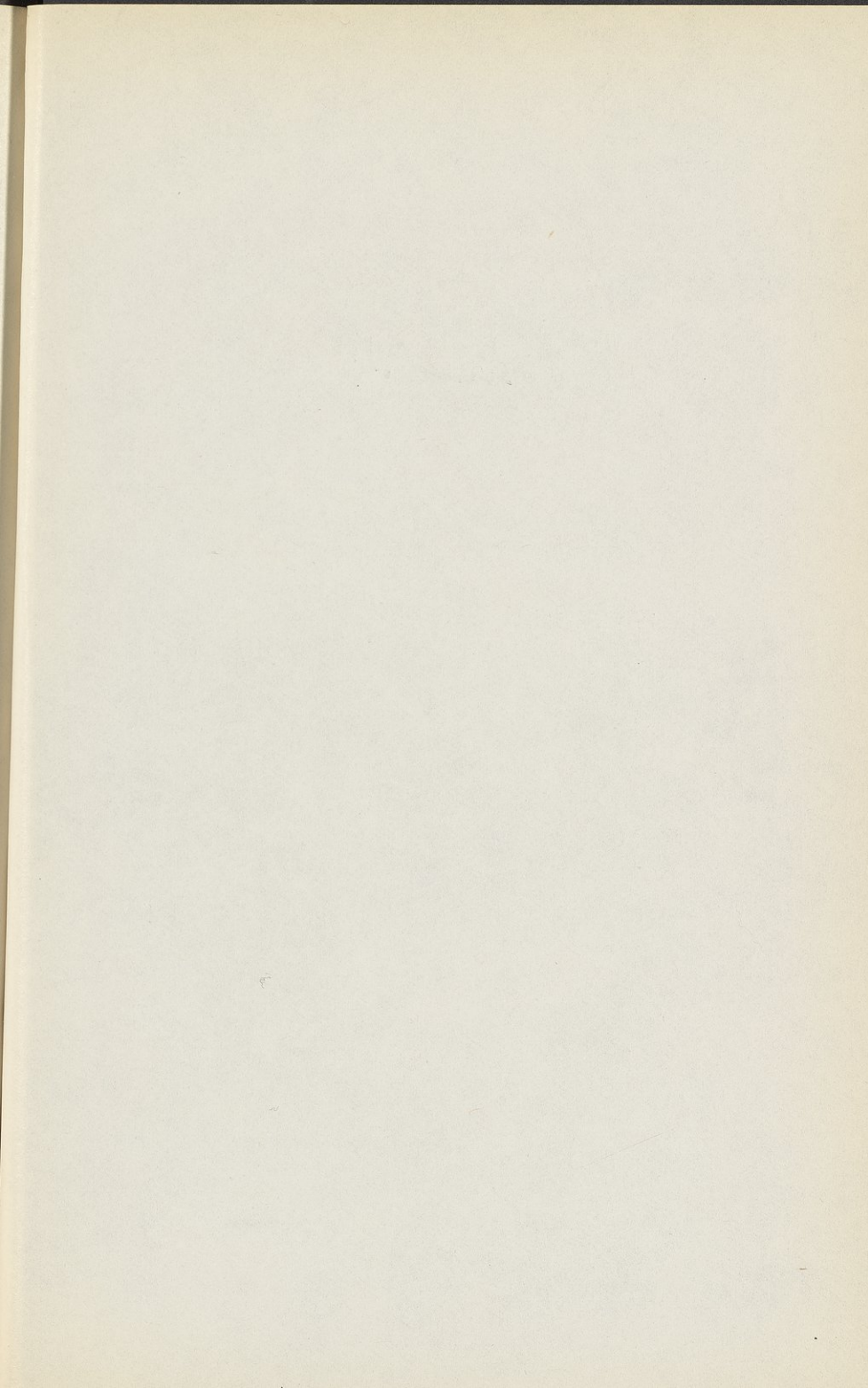
رَوَايَةُ فِي إِثْمَانِيَّةٍ مِنْبَاطٍ



الابهداء

الى روح المرحوم فرحات حشّاد

أخوةً وفاءً « لانسان »



الأشخاص

مَيْمُونَةٌ	: امرأة
غَيْلَان	: رجلٌ، كائن زائف
مَيَّارَى	: خيال وطيفٌ وحبٌ وجمال
بَغْلٌ ذَكِيٌّ	
ذُبُّ ذُو عُوَاء	
أَطْيَافٌ وَهَوَاتِف	
وَوَادٍ وَجَبِلٌ	

الضاحية

« ليس الشعر في أن تقول كلَّ شيء ، بل

هو في أن تُحلِّمَ النفسَ بكلَّ شيء » .

(سانت بوف - Sainte-Beuve)

المنظر الأول

على منحدر جبل أخشب غليظ
حزيز ، نباته كالابَر وارضه ظمأى ،
وغباره كثير وسماؤه صفراء •
آخر عشي •

امرأة ورجل يصعدان في عقبة
يجبران وراءهما بغلا ، فتنتهي العقبة
عند كهف ، فيقفان ويوقفان البغل •

هي

انظرِ الجبل •

هو

(يمسح عرقه عن جبينه ثم يرفع البصر ثم يقول)

قد نظرت الجبل •

هي

فماذا سمعت ؟

هو

المنظورات لا تُسمع . المنظورات تُرى او لا تُرى .

هي

(ترفع بصرها وتنظر طويلا ثم تقول)

فماذا رأيت ؟

هو

إنني أرى جبلاً . فيم السؤال ؟

هي

إنه جبل ... وليس بجبل .

هو

إنه جبل وليس بجبل ! .. ما هذا المنطق الجديد ؟

هي

منطق الجبال يصغر عندها الانسان .

هو

هذا عبث لسانك قد عاد إليك .

هي

أَلَا نَحْطُّ عَنِ الْبَغْلِ؟

يقبلان على البغل يريدان ان يحطّا
عنه . فاذا هو أيضا رافع رأسه كالناظر
الى الجبل .

هو

(للبغل)

أَوَ أَنْتَ أَيْضًا؟

هي

لَا يَا غِيلَانَ . إِنَّمَا هُوَ أَنْ ثَقُلَ الظَّهْرُ فَاثْتَدَّ الْعُنُقُ
وَارْتَفَعَ الرَّأْسُ . كَذَا الدَّوَابُّ جَمِيعًا إِذَا انْقَضَ
الْحِمْلُ ظَهَرَ هَا ...
وَكَذَا الْعِبَادُ .

غيلان

تَعْنِينَ؟

هي

الصَّلَاةَ وَالِدُعَاءَ . تَنْقُضُ الْأَعْيَاءَ ظُهُورَ الْعِبَادِ ،

فتمتدّ الاعناق وترتفع الابصار والرؤوس ، وتكون
الصلاة ويكون الدعاء ...

(تنقسم)

وانت إله البغل . بل انظر إليه يدعوك . افلا تفهم
الادعية الصامتة؟

تُقبل على البغل تحسّط عنه ويُسعدّها
غيلان . فيحطّان عنه خيمةً وأوتاداً
وخرُجاً بالمتاع كمتاع المسافر . ويلقيان
ذلك كلّهُ على الارض ، ثم تجلس
هي على حزمة أوتاد . وتمدّ يدها
فتتناول دلوّاً في جملة المتاع ، وتجعل
تعبت بها ، وهي مطرقة ساكنة .
ويجلس غيلان ويُطرق أيضاً . ويبقى
البغل على رأسيهما واقفاً مطرقاً ...
ثم تتكلم هي فتقول :

هي

هَاقِدْ وصلنا يا غيلان .

غِيلَان

نعم. لقد وصلنا وانتقطع الرحيل .

هي

ولكننا وصلنا يا غيلان آخرَ عَشِيٍّ • انظرِ الشمس
تغرب •

ينظر الى الافق الغربي أمامه كأن
الشمس فيه لهبٌ من نار • ويمسك
عن الكلام ، كأنما اصابه كلامها في
الاحشاء • ساعةً ثم يقول :

غِيلَان

ومع ذلك فقد نزلنا بالخيال وحلّلنا بما كُنَّا نتمنّى ،
وانتصبنا وقرّر القرار... •

(تهتمّ بالكلام فيقول ويومئ يده)

لا. لا تقولي شيئاً . فانك ستقولين إنك تكرهين
معنويَّ النُّزُول • او تقولين إنه ليس اكذب من
هذا القرار •

هي

لا ، يا غِيلان . ما همَّ لساني بشيء من هذا . إنما
أردت أن أقول : حلول الدود بالثمرة ، فالثمرة إلى
التعفن والفساد .

غيلان

تقولين يا ميمونة خطأ عظيماً . لأن الخيال لا يؤكل .

ميمونة

قد يكون قولك الحق ... بل هو الحق . نعم . الخيال
لا يدود ولا يؤكل . الخيال آكل أكل جرّاف .
يا أكنا نحن . الخيال من أكلة البشر .

غيلان

لنجعل ثمرة من أكلة لحم البشر يأكلها الدود
وتأكلنا أكل المنهوم . هل تدرين ما تغنين ؟

ميمونة

نعم يا غيلان حبيبي . هو ما قلت : إن الخيال آكلك

وانت آكله . فعلٌ واحد وزمنٌ واحد ولكنِّي
لا أدري أيُّكما يريد الانتقام من الآخر ولا أعرف
لماذا . فهو يسكنك ويُلحِّح إلى حدِّ الاضجار ، وانت
تربيّه وتملؤه شحماً كخروف أضحية . ولا اعلم ما
تريدان . إنكما بغلان حَرَونان .

غيلان

قد نكون بغلين حرونين ، ولكنّا مع ذلك صديقان .
ولا يريد احداً بالآخر شرّاً . ولن يأكلني ولن
آكله . بل سندعوكِ معاً حتى تُؤمنني

ميمونة

أومنُ بماذا ؟ ان كان إيماناً بالمرمر الصلب والخطّ
المطلق وعود الحياة الياس ، فقد آمنتُ منذ زمنٍ
طويل .

غيلان

لا يا ميمونة . بل الكفر بالنواميس والحدود

والعراقيل ، وإنكارُ العجز والاسلام ، ونفيُ العدم .
هو الايمان بالفعل ... وأما خطوطك المطلقة ،
ومرمرُك الصّلب ، وحساباتك ، وما استبدّ عليك
من سجون النفس والقوّة والعقل ، فسنجعلها دُخاناً
نرسله في السماء ارسالَ المدخّن دوائرَ تذهب هباءً ،
ظريفةً خفيفةً كعينيك زرقاء ...

(يهتف هاتف في صوت غريب لا إنس ولا جان)

الهاتف

تدعو ماذا الى ماذا ؟

إلى أيّ إيمان ؟

آيمانك بنا ؟

ام إيماننا بك ؟

قُلْ ، قل لنا يا هذا ؟

تدعو ماذا الى ماذا ؟

(ثم يسكت فيهتف هاتف ثانٍ بصوت كصوت الأوّل ولهجة
استهزاء :)

أنا الانسان ...

ما دام الجُدُّ

ما دام الجَهْدُ

ما اشتدَّ العِزْمُ

وَلَيْدُ النَّفْسِ

وَلَيْدُ النَّارِ

لا أبالي ...

سواءً عندي مآلي

الى النعيمِ

الى الجحيمِ

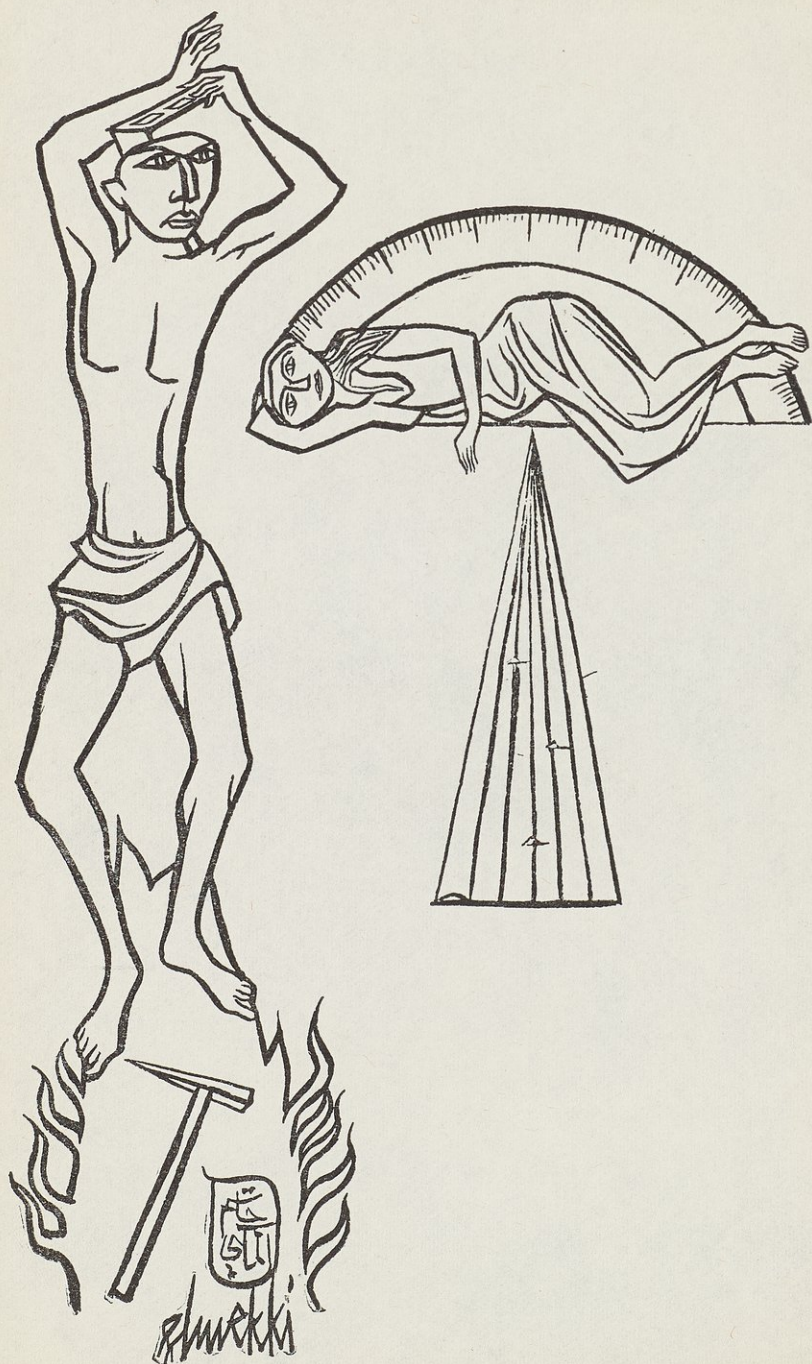
الى العذابِ

الى الثَّوابِ

لا أبالي ...

أنا الانسان .

(يتناظر غيلان وميمونة)



غيلان

إِنِّي أَسْمَعُ هَاتِفًا .

ميمونة

وَإِنِّي أَسْمَعُ مَا تَسْمَعُ .

(يتضحكان)

أَنَّهُ وَحْيِي وَأَنَا نَبِيَّانُ .

غيلان

أَوْ هُوَ آلَهُ سَيَبْتَذِعُهَا النَّاسَ يَوْمًا وَيَسْمَوْنَهَا الْمَذْيَاعَ
أَوْ الْهَاتِفَ .

(يهتف هاتِف ثالث :)

مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ

أَشْرَفُ عَلَى الْوَهْدِ

أَطْلُقُ لِلْبَصْرِ

ثُمَّ أَخْرُجُ مِنَ الْوَادِي

إِلَى وَهْدِ الْقَدَرِ .

هُوَ كَشْفٌ ؛ أَنَّهُ هُوَ السَّرَابُ

يخرق الارض نوافذ
يفتح الابواب .
يُفسح الافق عليك
يُغري بالذهاب .
لكن القحط والنار
من ورائه .
ولظى حرّ الأوار
تحت مائه .
نارٌ منصبة
وحضهم فؤاد .
فلا تعرض للربة ،
ولا تقرب الواد .
فهي صيهود
ورعد رعدود
وفلق جلود .
ذات الرواعد الربة .

فادعُ ذات الرواعد
وسبِّح لصاهبَاءُ .
(تسكت الهواتف)

ميمونة

ما صاهبِّي يا غيلان ؟

غيلان

لا أدري . أسألي الهاتف .

ميمونة

أيُّها الهاتف ، ما صاهبِّي ؟

الهاتف

لا تحرِّري . قوومي الاسم . هو بالمد ، لا بالقصر .

ميمونة

قد أصلحت : صاهبَاءُ . فما صاهبَاءُ ؟

(تعود الهواتف في صوت رخيم تتغنى :)

إنها قرنٌ طويل

قرن ثور ، قرن فيل .

هَلْهَبًا هَلْهَبًا ،
سُبِّحَتْ صَاهِبَاءُ .

تتجسم الاصوات شيئاً فشيئاً فتبرز
أطياناً ، كحُحلام النائم في ليلة صيف
خفافاً ، فيدور بها الرقص حولهما
طوافاً .

رَبَّةُ الْيُبُسِ .

رَبَّةُ الْقَحْطِ .

تسكن الجبال .

الصخرةُ الرَبَّةُ .

هَلْهَبًا هَلْهَبًا ،

سُبِّحَتْ صَاهِبَاءُ .

(تذوب الاطيان كثرع السراب)

ميمونة

أرأيتَ يا غيلان . الماءُ إثمٌ وسيئةٌ .

غيلان

هذه الاطيان لطيفة . إنني لَأَجِدُ ريحَ عودٍ ونَدٍّ .

لعلهم يتطهرون بالعود لئلا يقربوا الماء .

ميمونة

لا يا غيلان . إنهم يتطهرون بالنور . بالشمس .
بالقيظ . بالنار .

غيلان

لا أرى المغتسل بالنار طاهراً .

ميمونة

هي الالفاظ تغترك . إنهم لا يغتسلون بل يتطهرون .

غيلان

المحترق غير المتطهر . إنني أراهم فحماً .

ميمونة

ليس أظهر ممن احترق فصفته النار .

غيلان

ما غتت هذه الاطراف الهواتف ؟ ما تريئن ياميمونة ؟

ميمونة

هي السنة نبى القوم .

(بعد توقف قصير)

هل جُلتَ فيهم ؟

غيلان

ما ذهبت نفسي الى شيء من ذلك . وما هَمَّي
منهم ؟ - إنما ذهبتُ في الوادي فانحدرت فيه ،
ورأيت الهاوية يغور في غَيْبِها ماءُ العين ...
وقام السدُّ الى عيني . سيكون جميلاً رائعاً بديعاً اذا
ما بنيتُهُ يا ميمونة .

ميمونة

دع سَدَّكَ المستقبَل وحديثه ، فإنه لا يلحقك رجالك
وبنّاؤوك إلا غداً .

غيلان

ألك حديث خير منه ؟

ميمونة

نعم ، خير وأروع وأهول . للقبيلة نبِّي .

غيلان

نحن هنا كآدم وحواء وقد تخلصنا من وُشاة الجنّة
وفضوليّتي الملائكة وعيون الآلهة • ولسنا في حاجة
الى الانبياء • إنما تُرسل الانبياء الى وُلدنا من بعدنا.

ميمونة

ليس أكره إليّ من تشيئنا بآدم وحواء ، وليست
ولادة البشريّة من شأننا . ألاّ تنسى البدأ والخلق ؟
اسمع حديث القوم ونبيّهم فهو أهمّ عليك ...

غيلان

إذن أسمع ... ولست بآدم ولست بحواء • هاتي
حديثك •

ميمونة

ذهبت منذ ساعة في القيلة فسرتُ وجُلت • فكانَّ
الوادي وادي البُرْص او وادي الجذام • وأنما
كنت أنا البرصاء • فانه لم يقربني أحد ولا مستنني
منهم يد ولا دنا منّي كلام • فكانني أجول في سُرود

شديد . وكانت اجساد القوم متوترة كجهد الفار من سجنه .. ومع ذلك فقد سرت فيهم حتى كدت أن أخرج عن آخر بيوتهم . فأنا عند آخر بيت اذ رأيت جارية . وكانت رأينا عند وصولنا الى القبيلة . وكانت هناك مستلقية على ظهر صفاة الى الشمس . وسألتها فقالت انها تتطهر . وكانت لا تكاد تكون مُعَصِّراً ، ولكنني رأيتها مفتحة الى الشمس قائمة النهدي رخوة ، كالذائبة لذة . وهي التي حدثتني عن صاهباء والنبي . وأرثني الربة هناك على رأس الجبل . ولكنني نظرت فلم أَر شيئاً فقلت : لا أرى ربة ولا رباً . فقالت . لا بد من عشرة أيام صياماً عن الماء لتحتد عينك وتستقيم لها الرؤية . فقلت : لست بناقة حتى أصبر عن الماء هذه المدة . ويئست من رؤية صاهباء ..

غيلان

والنبي ؟

ميمونة

لم أره كما أني لم أر الرّبة . وإنما قالت لي الجارية :
لو رأيته ! . إن له جلدًا أغبر اللون قد شدّ على عيدان
عظامه كالذلول تمسّط شديدًا . ووصفته لي حتى تصوّر
النبيّ لعيني كطل مدّ جلده مدًا شديدًا . ولكنها
زادت فقالت : لم ير الناس أشدّ هزالًا منه . فأفسدت
عليّ تشبيهه بالطل ، لأنه لم ير الناس ولا ثعلب
الحكاية أشدّ من الطبول سمنا ولا أضخم منها جثة .

غيلان

وماذا يقول القوم عن السدّ وعني ؟

ميمونة

ما أقلّ صبرك ! وكيف أعلم ما في نفوس الصمّ
البكم ؟ إن شئت أن تعرف رأيهم في سدّك فاصبر
حتى تنطقهم صاهباء . أمّا الآن فلا لسان غير لسان
نبيهم . وقد حدثني الجارية عن النبيّ ولسانه ، وأنه
كثير الأصوات لا تحصى هواتفه . وقالت : ولسان

النَّبِيِّ وأصواته رحمة • لَانَّهَا تَنْذِرُ كُلَّ حَيٍّ بِمَا
 قَضَى لَهُ مِنْ شَأْنٍ فِي حَيَاتِهِ وَتَرْسُمُ لَهُ حَدَّهُ • ثُمَّ قَالَتْ :
 فَتَصِلِّي يَا هَذِهِ لِأُلسَنَةِ النَّبِيِّ وَأَصْوَاتِهِ • وَلَمْ أُصِلْ
 لِنَبِيِّ وَلَا لِسَانٍ ، وَلَكِنَّا سَمِعْنَا السَّاعَةَ يَا غِيلَانَ
 أَصْوَاتِهِ ••• وَإِنِّي لَا رَأْيَ لِي أَنْ تَنْذِرَ •••

غِيلَانُ

إِنْ كَانَ إِنْذَارًا ، فَلِمَ جَاءَ فِي مَا سَمِعْنَا مِنَ الرِّطَانَةِ ؟

مِيمُونَةُ

(هَازِئَةٌ)

لَوْ جَعَلْتَ مَدْرَسَةً لَتُعَلِّمَ الْآلِهَةُ الْبَيَانَ ؟

غِيلَانُ

أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ إِنْ تَكَلَّمُوا لُغَةَ الْبَشَرِ أَنْ يَنْفَتَحَ لَنَا فِي
 أُلُوهِيَّتِهِمْ فَتُصِيبَ شَقًّا • فَهُمْ يَفْضَلُونَ أَنْ يَتَرْجَمَ
 عَنْهُمْ الْإِنْبِيَاءُ •••

(يَطْرُقُ سَاعَةٌ ثُمَّ يَقُولُ :)

لَكِنْ دَعْنَا •

ميمونة

ما تقول يا غيلان؟

غيلان

(محتداً فجأةً)

أقول ان أهل هذا الوادي قد سرقوا للوهاد سرايبها،
ولبسوا هزالهم كما تلبس الخلع السلطانية ،
واتخذوا لساناً لبيّهم كثيراً كالسنة السعالي ،
وخشعوا لربة خافية وقالوا : العطش والقحط ،
وليستف الماء . يحسبون أنهم وحدهم يقاسون الضمأ
واليس والقحط ، ويجبونها ويتخذون أرواحهم
منها . ولكنني أنا أيضا أحبها وأقاسيها . . . وإنما
هم قوم أفعمت نفوسهم مياه كاذبة ، ورطوبة
كاذبة ، وسماء كاذبة . وإن نفوسهم لنفوس باطلة
الكيان كاذبة . فروا من الفعل عجزاً وبطلان
نفس . بل انظري هذه العين البديعة تنفجر عن جنب
الجليل ، كيف تركوها منذ آلاف السنين تذهب

فتغور مياهها وحياتها في الهاوية بمنقطع الوادي .
وانظري مياه المطر لا تسبح إلا على الجبل ، كيف
تركوها منذ آلاف السنين تسيل فتتحد فتلحق مياه
العين فتذهب فتغور في الهاوية بمنقطع الوادي . ولم
يخطر لهم ببال أن يقيموا سدًا فوق الهاوية فيجسوا ماء
العين ومياه المطر والجبل واني لأرى سيدي بين
يدي وأرى المجاري . وأرى الانابيب ممتدة فوق الهاوية
جسرًا حديدًا يهزأ من الهاوية متدافعًا الى الوهاد .
واني لأرى المياه متدفقة غالبة قاهرة ، تتدافع اليك
تدافع المتمنى يزف اليك بنفسه . وليكن الخلق
ولتكثر الولادة ! . . . هذه الارض المتجعدة المغبار
كالعجوز الفاجرة ، لا حُبْلَها ماءً ، فاملان بطنها
فأخرجن حياة . وستريتها يا ميمونة يومئذ ،
وستريتهم معرضين عن صاحباء الشمس والقحط ،
ينبذوها في العراء . وسترين الجارية يومئذ يقوم
نهداها شهوة تبرج للماء ، ويشملها الماء ولا تنفتح

لشمس • وستريتهم يطرحون شمسهم في مياه السد
الغامرة الهادئة • ويذهب الماء بصاهباء وقحطها
ونبيها... •

ميمونة

قد سمعتُ كلاماً كـ كلام الاصوات الهواتف •
أو أعدتُك يا غيلان ؟

غيلان

أما تلك فلا أرى لها غير بائع ببغاوات يُتاجر بها •

ميمونة

أنني أراها تنذر يا غيلان... •

تملك ميمونة خواطرها ، ويملك
غيلان الفكر في سده • وينزل عنها
وتنزل عنه... •

ويخطر فوق رأسيهما طائر غريب
فيمرّ سريعاً أسود ، فلا يطرّفان •
فيعود فيمرّ فوق رأسيهما سريعاً
أسود • هامة أو صدى... •

ميمونة

(مقشّرة)

ألا ندخل الحيمة؟ إنه ليس أكره إليّ من طلائع
الليل الطيور الممتلئة ظلاماً .

غيلان

الحيمة؟ لا بُدّ من ضربها قبل دخولها ... أترين يا
ميمونة الشاؤم والطيّرة؟

ميمونة

(بصوت خافت ونفسها الى غير ما تقول)

الشاؤم والطيّرة؟

(تقوم ويبدأ وتقصد الى الحيمة تريد أن تضربها)

غيلان

لا بُدّ أن تكون انقلبت الاصوات الهوائف طائراً .
او كأن طيور هذا الجبل اذا ماتت لا تتعفن ولا
تفسد، بل تجفّ وتيس كالقديد . ويؤخذ منها لا مثالنا
كالفرّاعات تُنصب في الزرع .

يقوم غيلان • فيعود الطائر ويمرّ
أمامه ويصبح صيحةً ثقيلةً سوداء
كالوَحْل • فيضربه ضربةً تطرحه على
الأرض • ويضحك الطائر • ويغمّ
الدنيا شيءٌ من الظلام قليل كالغُيبَة
أو كالبُحَّة •

غيلان

دعي يا ميمونة الخيمة •

(يهَمُّ بالانصراف)

ميمونة

إلى أين ؟

غيلان

نطلب فرجةً وفُسحة •

يذهبان فيبقى البغل وحده • ثم يخرج
بعد ساعة من وراء حجرة حمراء حيّة
طويلة غبراء ، فتشّنى ساعةً حول
الطائر مطروحاً وتحفّ حفيفاً • ثم
تنشب فيه أنيابها ، ثم

تذهب به تجرهُ . ويسمع عواءُ
ذئب ثلاثاً طويلاً كالنحيب . ثم إذا
وقع أقدام قوم قادمين كضرب الطبل
يرجّ الأرض رجّاً . كالجيش العظيم
وليسوا جيشاً . . ويرهف البغل
أذنيه . وتنصبُ ظلمات الليل

النظر الثاني

يدخل جماعة من الرهبان قسومة
 صاهبَاء . في خشوع ذل ومشيئة
 قهقري . ستة وفيهم مشعل وسابحهم
 طبل . ثم ستة وسابحهم إناء ماء .
 مشتملون ببرائيس أسباط ، وليس
 يبدو منهم إلا الرؤوس ناتئة كالغناصل
 وقد نبتت في قلالها خصال من شعر
 سوداء ، مرسلات كضفائر النساء ، وسالت
 منها اللحى غزيرة كثيفة شعناء . أولئك
 قومة صاهبَاء ، وسدنة بيت النار والماء .
 يدخلون فيظن البغل أنه المسقى .
 ولكنهم يجعلون الماء أمام الكهف
 وسط الفناء . ويستديرون حوله ،
 وعين البغل مشتتة ناظرة حيرى .
 ثم يتدنى الترتيل ويتدنى الدعاء .
 وتقوم الغوغاء . فتسير الغويباء :

سَبَّحُوا مَا فِي الْهَبَاءِ .
 سَبَّحَتْ صَاهِبَاءُ .

هَلْهَبًا هَلْهَبًا .

سُبِّحَتْ صَاهِبًا .

ثم تسرع وتشتد . والاصوات
تحتد . والاعناق تمتد . والطبل
يهدهد . دُعَاءٌ في رطانة ، وكلام
بعيد المعنى :

ضَمَوُحٌ قَدِرٌ	بِضْوٍ غَمِرٌ .
سَهِيدٌ يَشْرُ	رِمَالِ الدِّمَاحِ .
شِضَاضاً عَمِدٌ	كَهَيْبِ المَرَدِ .
تُمْفَرٌ طُرْدٌ	بَطَخِرِ الكِرَاحِ .
لَكَيْفِ بَرِمٌ	لِرَفْضِ قَدِمِ
لِمَاضٍ طَغَمٌ	لِدَائِفِ الجِرَاحِ .
هَيْمَرٌ ضَخِلٌ	وَقَافٍ مَغِلٌ
يُنْبِرِي الدَّغْلُ	بِكَسْفِ الرِّمَاحِ .
فَهَاتِ الصَّلَنْدِي	وَدَوْفِ الرِّيحِ

بجُبِّ الرُّوَيْدِي وسخَطُ الضَّرَّاحِ •

يَسْكُتُونَ فَيَنْفَلِقُ الطُّبْلُ وَيَقُومُ
صَوْتُ صَاحِبِهِ كَالزَّبَانِيَةِ :

سَخِرُ مَاءِ الْهَبَاءِ
سُبِّحَتْ صَاهِبَاءُ
هَلْهَبَا هَلْهَبَاءُ
سُبِّحَتْ صَاهِبَاءُ

فِيحْيِيُونَهُ فِي صَوْتِ هَمِّمَةٍ :

هَذِهِدُ الْهُنْدُ وَاسْتَدُ السُّنْدُ
وَانْقُضَ الْمُنْدُ وَاضْعَقَ الرَّاحُ

وَيَعُودُ إِلَى طَبْلِهِ يُرْعِدُهُ ، وَإِلَى
صَوْتِهِ يَرْسُلُهُ سَرِيعاً ضَخْماً شَدِيداً ،
يَتَشَّى كَمَوْجَةِ غِيْضٍ :

صَغَابُ الْهَوَادِمِ وَصَخْرُ صَلَادِمِ
مَنْدَرَا دَافِقُ ظَنُّوْى غَافِقُ

بَرَكَكُمْ الضَّيَّاهُمْ كَعَفْرِ الْجَلَّاهُمْ
غُمِيَا دَافِقَ فَضْوَى غَافِقَ

وَيَمَسُّ الصَّلَاةَ والدعاء مثل
السَّهْبِ ، وَتَحْرُكُ الرِّيحَ وَتَخْفِقُ .
وَتَقُومُ الْبَرَائِيسُ فَتَهْتَزُّ ، وَتَأْخُذُ
فِي رَقْصٍ وَإِيقَاعٍ ، وَرَعْدٍ وَإِرْجَاعٍ .
حَوَافِرُ خَيْلٍ وَوَقْعُ جُمُوحٍ ،
كَتَقْسُوةِ الصَّخْرِ أَوْ شِدَّةِ الرُّوحِ ،
وَتَتَعَالَى الصَّيْحَاتُ ب :

« هَلْهَبَا هَلْهَبَا سَبَّحْتَ صَاهِبَاءَ »
وَتَقْبُضُ الْوُجُوهُ ، وَتَتَشَرُّ السَّعَافُ
كَالظُّلُمَاتِ ، وَتَجْعَلُ الْبَرَائِيسُ
تُغْرِبُ وَتُرْجِي ، رَفِيفَ « الطَّائِرِ
الْمِيمُونِ » ، كَأَنَّهَا سَرَابٌ مُجْنُونٌ
ويقول البغل :

البغل

عَوَاءُ الذُّئَابِ يُسْتَجَابُ أَمْ لَا يُسْتَجَابُ ؟ سَأَسْأَلُ
غِيلَانَ رَبِّي . لَكِنَّ أَذْئَابَ ؟ أَمْ أَطْيَافُ خَالِي الْعَصُورِ

في تيه العذاب ؟ أم كلاب ؟ أم صخور ؟ وأمواج ؟
واضطراب ؟

ولا يهيمُ الرهبانَ ما تقول البغال .
فهم في شدة الغيض وعنفوان اللهب .
يضربون الصدور ويُحنون الظهر .
والطبل يَدْمِم ، واصواتهم
تَهْلِسُ وتُهْمِم . يدعون صاهبَاء .
يسألون للماء النار ، وللسدود
الدمار ، وليدي غيلان ان تُتَبَّأ .
ولا تبطئ بالاجابة صاهبَاء . فيحترق
ماء الاناء . وتتصاعد رُوحه ، فاذا
حَفِيفٌ ، وجوهر نارٍ لطيف ،
كعَيْنِ الآل خَفِيف . فتسكن
البرانس ، ويخفت الطبل ، ويركعون
لصاهبَاء . وتتباطن الاصوات ويهمسون
حمداً :

مَرُوتُ عَذَابُ	أَكِيلُ تُرَابُ
عَلَى قَنُوسِ قَابُ	مِنْ مُفْتَنَاءُ
رَمُوضُ مَطَاحُ	عَلَيْهِ بَـرَاحُ
وَسَبْعُ رَصَاحُ	فِي دَوَفَنَاءُ

ثم يقومون ، ويتحرك الطبل سبعة
في مثل ارتعاد العريضة ، ثم يختمون
بالهمس :

كَسَفَطُ الْغُرَبُ رُقُوفُ الصَّلبِ
فَاتِي الدِّيَاحُ
مُنْطَاءً لِلصَّبِّ يَنْبُو وَيَنْكَبُ
غَادِي الْجِرَاحُ
يَاهِلْ هَلْ هَبْ يَا طَلِبَ الرَّبِّ
هَـذِي الْقِرَاحُ

ثم يخرجون ستة وسابعهم طبل ،
ثم ستة وسابعهم نقيق البغل ،
ويتركون إناء الماء ، تخفق عليهما
روح الماء صافية زرقاء ،
ويبقى دوي «هَلْهَبَا هَلْهَبَا» مُعلَقاً
بعدهم في الهواء كدخان بخور ،
ساعة ، ثم تسكن الأرض والسماء ،
فاذا ليلة لَيْسَةَ رزينة مَلَاى ،
كَيَحْمَل حَسَنَاءَ حُحْلَى ، وشفق

كالفجر وشفة الليل عذبة ، ونوم
كالدهر يُفَعِّمُ الليلة ، وخلو كالنجم
والنجم نعمته .
ولا يعود غيلان وميمونه الا وقد
ذهب من الليل

المنظر الثالث

بفناء الكهف وقد بدت فيه الخيمة
مضروبة . الساعة اول الفجر ،
وقد انتشرت أشعة نديّة في سماء
رطبة كالعجين ، ولاحت الصخور
والحجارة ليّنة ورديّة .

تخرج ميمونة من الخيمة في مبدل
كسكب الماء رقيق شفاف . وتجلس
على صخرة أمام الخيمة . ثم يخرج
غيلان بعدها .

ميمونة

(ناظرة الى السماء والفجر)

هذا الفجر يا غيلان ، وهذا النور كأشهى الطعام .

ينظر غيلان الى السماء والفجر ولا
يقول شيئاً . ثم يجلس قرب ميمونة
وينظر الى الافق الشرقيّ .

ميمونة

لقد رأيتُ الليلة رؤيا •

غيلان

« يا أبتِ إني رأيتُ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر
رأيتهم لي ساجدين »

ميمونة

لا يا غيلان • ليس هذا •

غيلان

كنت أحسب أنك نسيت كل توراة وقرآن وانجيل •
أم ترين من ظريف المزاح التشبُّه في الفجر بالانبياء
ابناء الانبياء ؟ هم يرون الرؤى ليلقوا في الجب
ويكون لهم شأن مع امرأة العزيز فيصيروا انبياء •
أمّا انت ؟ - الفجر ساعة جسد تكره المزاح •

ميمونة

ليس بمزاح •

غيلان

لكن ما شأنني وذاك وما الداعي الى التبكير بذكره ؟
أنا لا أعبر الرؤيا .

ميمونة

لأنه حقُّ أني رأيت رؤيا ...

غيلان

هذه البلاد ما أكثر الاحلام بها والارواح ! وما
أكثر الاصوات والانبياء ! دعينا يا ميمونة ، ولننتظر
أصحابنا ، فانهم عمّا قليل بارزون من اثناء الارض
طالعون مع الشمس من الأفق .

ميمونة

... ولا أنني لم أرك في رؤياي يا غيلان .

غيلان

إذن فما همّسي من رؤياك ميمونة ؟ أدخلها في قرآن
او إنجيل او يعيها نبيّ القوم .

ميمونة

ما همّني من رؤياي إلا خلوها منك ...
كأنك تخاف ان اقص عليك رؤياي ؟

غيلان

(هامًا بالقيام)

ان كان لا بُدَّ أن تقصّيها ، فهل لك ان ادعو
الاصوات الهواتف تسمّع اليك .

ميمونة

أَنْ تسمع الاصوات أمرٌ عَجَاب . ادعُ نَر .

غيلان

.....

يريد غيلان ان يدعو إلا أنه لا يخرج من
فيه صوت ، وما هي الاحركة المتنادي
يُفرغ صدره ويمتلئ حلقه ولا
يكون تصويت .

ميمونة

ما لك ؟ ألا تدعو الاصوات ؟

غيلان

(متحيراً مضطرب النفس)

لم أقدر على التصويت • أناادي ويتحرك الصوت في
حلقي ثم كأنّ شارباً يشرب الصوت على فمي •
(يحاول ثانية أن ينادي)

هل سمعت شيئاً يا ميمونة ؟

صوت هاتف

إنك العاجز • إنك العجز •

(يرتعد غيلان ويقفز)

ميمونة

لا يا غيلان ، ما سمعتك ولا استطعت النداء • وإنما
سمعت الهاتف • فاذا كر يا غيلان قول الحسناء عابدة
الشمس : « ولسان النبّي واصواته رحمة • لأنّها تنذر
كلّ حيّ بما قضى له من شأن في حياته وترسم له
حدّه » •

هذا يا غيلان أول الحد •

غيلان

(في شيء من الحدة)

ليس في الحدود والعراقيل حدُّ واحد ولا عقال واحد
يعجز عن كسره العزم • قُصِّيَ رؤياك ميمونة ...

ويزيد فيقول : « وأما الاصوات
الهواتف ونبيُّها وصاهبائها فعملها
لعتي لعنة الانسان » • إلا ان الصوت
يموت ويتبدد في حلقه ، او يموت
في صدره ، فلا تُسمع لعنته .

... عجِّلِي ، قُصِّيَ رؤياك •

ميمونة

إنِّي رأيت السد •

رأيتُه أوَّلَ رؤيتي عن بعيد ، فاذا هو قطعةٌ من البياض
المتين ، متعالٍ عظيم وقائم مستقيم ، كالبحر في كبد
السماء •

ثم دُفِعْتُ إليه حتى قام في وجهي ، وعلقت فوق

الهاوية مَغِيضُ الماء • فنظرت وَيلاً شديداً وهولاً •
ورأيت الماء غائراً في الهاوية ، أصواتاً مشتبكة كأنها
أصوات الهاوية ، واقعا فيها كاللحم او الخيال او الامنية
تقع في الابد فتغيض فيه... ولا يردُّه السدّ • ولا
يجبس منه شيئاً...

غِيلان
(هازئاً)

وهذا أقطع ما يمكن ان يصيب سدّاً : أن يكون سدّاً
ولا يجبس ماء •

ميمونة

... ولم يكن السدّ من حجارةٍ وحديد ، ولا من
جصّ وطين ...

تتوقّف ميمونة كالتردّة في الامر
تقول أم لا تقول ، او كالفازعة . لحظةً .
ثم تقول بلهجة مُسَّدة :

لقد رأيتُ امرأً بديعاً عظيماً ومفزعا هائلاً ليس فوقه

هول . رأيت سداً من جماجم موتى قد رُصِّفت
أُكمل ترصيف ..

غيلان

(هازئاً أو جاداً)

منذ القِدم كان الموتُ الكمالَ يا ميمونة : كمالَ
الترصيف والترتيب . كمالَ النظام . وانما التشويش
في الحَيِّ وفي الحياة .

ميمونة

... ورأيتُ الماءَ جارياً من الجماجم سائلاً من ثقباب
العيون منصّباً من غيران الافواه والمناخر كالمخاط او
كالغراء ... ولم أر هولاً أهول من بقبة تلك المياه
في جماجم الموتى . وصرختُ روعاً : « يا غيلان أغثنني .
فأجابني هاتف يقول : « تدعينه ولما تُوافنا ججمته .
ثم انصبَّ عليّ شيءٌ ثَقِيلٌ قِدرٌ مثل الكابوس ،
فدكّني دكّاً ، وصحّتُ صيحات الفزع والالَم .
ثم إذا الجبلُ أمامي يتحركُ وتمتدُّ يداه ، فيدفعُ

الجماجم دفعا دَوِيَّا . واذا الجماجم تنفلق في شبه
 الصيحة وتنفرق ، وتطائر كقصف الرعد يفتض
 سماءً بكرأ . واذا الجبل يتقدم نحوي وشعوره عليه
 تنفق أشجاراً شهباء . واذا آلاف الطيور السوداء
 تخرج من تلك الشعور ، فترتمي كحجارة من سجيل
 في الهواء . وَيُعَمِّي الجوّ غباراً من كبريت وغيوم
 صفراء . وجعلتُ يدي على وجهي وصرخت صرخة .
 الحرقّة . وذهب الجبل فانتفخ وانتشر وترامى ، فاذا
 هو فجأة يقع على السهل والوادي فيدكّهما دكّاً
 ويرحيهما رحيّاً

واستيقظت . . . فاذا هذا الفجر علينا ، واذا يدك على
 خدي ترعى نعومة وجهي .

غيلان

(بعد إطراق قليل . في شيء من القلق)

لَسْمُ أَبْطَأْ أَصْحَابِنَا وَالْعَمَلَةُ وَالْآلَاتُ إِلَى الْآنَ ؟

وتنفجر الشمس فتبتّ أشعتها في

الافق الشرقي كإوتاد من نور قائمة
صلبة، أو كأذني فرس أرهف
يستمع صوتاً بعيداً .

غيلان

(وقد فكَّ طلوعُ الشمس عقله)
هذه الشمس ! وها أصحابنا وها الآلات ! جيشا من
السواعد والحديد والأيدي والدواليب والعزائم
والصدور !

ميمونة

(مُشيرةً إلى إناء الماء الذي كان تركه)
(بالفناء سَدَنَة صاهبَاء، وكأنَّه لا يزال)
(يخفق عليه طائف من النار)

وهذه النار لا تنطفئ !

أنحن غالبون أم يا غيلان مغلوبون ؟

غيلان

(يقوم فسرحاً وعزماً)

قُومِي قَبْلِي يَا مِمُونَةَ جِجْمَتِي • يَا مِمُونَتِي وَيَا
شِكِّي وَحِيرَتِي •

تَقُومُ إِلَيْهِ فَتُقَسِّلُهُ وَيَقْبَلُهَا . ثُمَّ يَدْخُلَانِ
الْحَيْمَةَ فَيَلْبَسَانِ ثِيَابَهُمَا ثُمَّ يَخْرُجَانِ
فَيَنْتَحِدِرَانِ فِي الْعُقْبَةِ ذَاهِبِينَ نَحْوَ
الرِّجَالِ وَالْآلَاتِ الطَّالِعَةِ مَعَ الشَّمْسِ .
وَيَبْرُزُ رَأْسُ الْبَعْلِ مِنْ وَرَاءِ صَخْرَةٍ
يَحْرُكُ فَيَكْنِيهِ •

المَظَرُ الرَّابِعُ

بنفس المكان ، بُعِيدَ انصراف ميمونة
 وغيلان. حِجْرَاتٌ ثَلَاثٌ تَتَحَرَّكُ
 فَتَصَوِّرُ قَلِيلًا قَلِيلًا جَوَارِيَّ ثَلَاثًا ،
 كَمَا يَتَصَوَّرُ الطِّينُ فِي يَدِ الْحَزَّافِ . ثُمَّ
 تَتَحَرَّكُ كَالنَّوَائِمِ تَسْتَقِظُ وَتُزِيحُ النَّوْمَ
 وَالْغَطَاءَ . وَتَسْلُلُ الْحِجْرَاتُ مِنَ النَّوْمِ
 وَالسَّكُونِ مَشَاقِلَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ .
 وَيَسْقُطُ عَنْهَا غَطَاءُ الْغُبَارِ ، فَتَقُومُ
 وَتَقْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَتَنْحِي عَنْهَا
 سَجَفَ الْغُيُومِ ، وَتَتَمَشَّى قَلِيلًا ثُمَّ
 تَدْعُو بِشَرَابِ الْفَجْرِ وَطَعَامِ الصَّبَاحِ .
 وَيَسْأَلُ الْبَغْلُ : مَا عَسَى أَنْ تَأْكُلِ
 الْحِجَارَةُ فِي فَطُورِ الصَّبَاحِ ؟

الحجرة الاولى

(فتاة لَيِّنَةٌ حمراء ، شعرها كالْفَجْرِ)
 (وعيناها سماء .)

ما رأيتهُ أغرب من شأن هؤلاء الغرباء .

الحجرة الثانية

(وهي التي كان غيلان جالساً عليها .)
(فتاة كالأولى ، لكن لالينة ولا حمراء ،)
(بل صلبة شديدة ، هاجرة في)
(صحراء .)

ومما الذي نعلم عنهم ؟ أنا لم أر شيئاً . أنا لا أعرف
منهم إلاّ الإعجاز .

الحجرة الثالثة

(وهي التي كانت ميمونة جالسة)
(عليها . فتاة لينت حمراء ، كالأولى)
(اختها الكبرى .)

لعل بني آدم يجهلون التصلب واليبس والشدة
والقوّة . فإني لأجد عجز هذه المرأة مسترخياً أيّ
استرخاء . وإني لاستقدر اللين والشحم الاسترخاء .

الحجرة الثانية

كذا البشر جميعاً يا دَيَّاداً . يكثر أن يُثقلوا أحمالهم

بالفضلات والزوائد التي لا تنفع ، من لحمٍ ولين
وعقل وشحم واسترخاء وماء ... وليس التصلب سهلاً
دياداً .

الحجرة الثالثة (للحجرة الاولى أختها)

وكيف يمكن او يطيب للبشر النومُ واجسادهم
مسترخية هكذا ؟ لا بُدَّ ان يكون نومهم ندياً ثقيلاً
غراء .

الحجرة الاولى

البشر لا ينامون أبداً . وليس الا أن يظنُّوا أنهم نائمون
يا دياداً . وما نومهم الوحيد الا الموت وراحتهُم
الواحدة . والموت نوم طويل يكاد يدوم أبداً . لا
يستيقظون منه الا وقد ذهب الجسم تراباً وبلى . فاذا
استيقظوا كرهوا أطلال الجسم منزلاً . فيغضبون ،
فيعملون ما يعمل المكثرون يُخرجون من مساكنهم
قهرًا : يجوبون طرق الدنيا ويحنقون ويحقدون

و يصرخون ، فيمتنع لصراخهم عن الآلهة الكرى ؛
فأرواحهم نواويس السماء ...

الحجرة الثانية

وهو ما يسمونه الآخرة والحياة الأخرى : هو أن
تلك النواويس أرواحهم آلهة السماء ، فتحيّر
نومها وتُعديها بالحمى ...

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

قولي لنا يا أختي: ما يريد هؤلاء الغرباء ؟

الحجرة الاولى

يا شوقاً الى العلم ، يا لين الروح دياذا ، ما تريد
ان يكون ؟ انهم لا يريدون شيئاً . انهم يتوهمون
أنهم يريدون ...

الحجرة الثانية

كذا البشر يا دياذا . لا يهوون الا الاوهام ولا
يُغَرُون بغيرها . وما من شيء ، ولا من مخلوق ، ولا

من حيي ، الا ويتخذ من حياته أهواءً وعاداتٍ شاغلة .
 فالآلهة من دأبها أن تخلق العوالم ثم تنزوي فتشتغل
 بلعب الشطرنج او النرد لتزجية الدهور . والشمس
 من دأبها أن تنير ، والحмир من دأبها أن تنهق وتشهق ،
 ونبيينا من دأبه أن يجمع فيذخر الاصوات . والبشر
 من عادتهم أن يجمعوا الاوهام والمعتقدات : يؤمنون
 بالله وبالشیطان ، وبالانس والجان ، وبالقبح والجمال ،
 وبالطب والموت ، وبالدينا والآخرة ، وبالعدل وبنات
 السعالی ، وبالقوة والحمر ، وبالعمل وتمائم السحر ،
 وبقدرتهم والسدود في الصحاري . انهم لمّا-ون
 جمّاعون ، باللّم والجمع مولّعون . كانّهم رؤاةٌ او
 محدّثون ...

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

هؤلاء الغرباء يا أخية ماذا يريدون ؟ ماذا يهّمون
 أنّهم يريدون ؟

الحجرة الاولى

هو لاء الغرباء أنفسهم يطلبون . . .

الحجرة الثانية

لا نهم لا يعيشون غيرها يا دياذا ، ولا بهم علة
غيرها ولا باطن داء . وانه ليتخث الرجال فيقعون
للرجال . تقرباً من انفسهم وتفانياً فيها . ولا تقرب
الرجل البكر العذراء الا وقد لمست نفسها ومرست
جسمها وطعمت بكارتها والتدت الى البكاء . . .
لذا ابتدع البشر المرأة دياذا .

الحجرة الثالثة

(ذاهبة في الوان من المعاني)

انفسهم يطلبون ؟ هم اذن اوسع وأبعاد لا تحد . . .

الحجرة الاولى

نعم يا دياذا . نعم ولا . فأضيق مكان يكون سماء .
وأقصر خط بعيد المدى . . .

الحجرة الثانية

نعم، اذا قصر عن غايته البصر ، اذا عشي الرائي عن
منتهاه

الحجرة الاولى

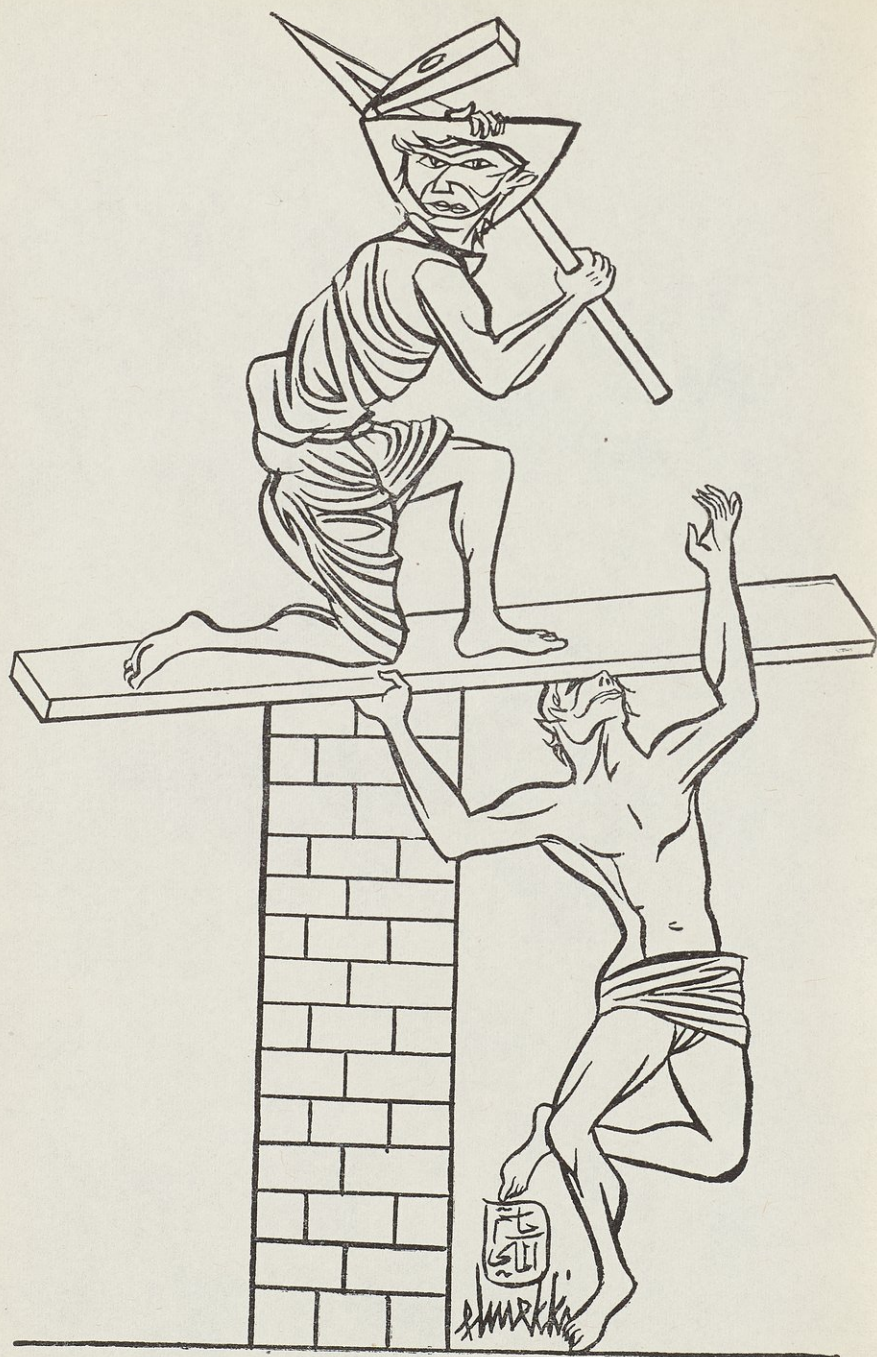
انظريهم يا ديادا .

(تنظر ديادا نحو السد)

انظريهم عند الهاوية بِمُنْقَطَعِ الوادي . انظري
كيف يسيلون عرقاً ، وَيَجْهَدُونَ أَنْفُساً ، وتترامى قواهم
عن أجسادهم كَشَرَرِ النار عن النار . انظري آلاتهم
تدخن وتسود ، ودواليبهم تهز وترتج . انظري
جباههم أُنْتَأَها الجِدُّ والجهد ، وأيديهم أَذْمَتَها الصخور
الصمّاء .

انظري العملَ يبتدىء وتوهُمُ القوَّةُ كيف يكون . . .
(تنظر الحجرات الثلاث معاً نحو السد)

كذاهم . لم يقصُرْ فكرُهم عن شيء مثل قصوره عن
ادراك ما تقتضيه الحياة من التسليم والجبن والاسلام .



هم مُنْعَمُو النفوس إيماناً وإقداماً وجباً للجهاد . وإنهم
لُسُكَّارِي : يريدون أن يخلقوا . يريدون أن يشبعوا
الأرض ماءً ، فيصيبوا منها أشجاراً ونباتات ، وحدائق
غناء ، ومروجاً سمينة ، وعشباً ريّاناً ، وثماراً لذةً
ذوياً ، وأزهاراً منفجرة ماءً . . .

الحجرة الثانية

نفوسهم أبعد ما يكون عن نفس الزيتون يعرض
القصط ويسقي .

الحجرة الاولى

(تستمر كلامها)

... يريدون ان يقهروا الآلهة ويقتلوا العجّز . ولكنهم
لن يجدوا الى خلق العاصفة وجهاً ولا الرعد والزلازل
والبرق . لن يستطيعوا الى الخلق سيلاً .

الحجرة الثانية

(مرثلة انجيل صاهباء)

اعوذ بصاهباء من الانسان الرحيم :

« وأهوينَا على السحب بمعول من صخر وقلنا للارض
« كوني . فوضع السحاب ارضاً من صخرٍ وشدة .
« إِنِّي أَنَا الخالقة الربَّة .

« ثم جاءتنا الملائكة فسجدتْ وقالت : الارض صخر
« ولا حياة فيها ، صاهبَاء . فأمرنا العواصف والرعد
« والسحاب والبرق والزلازل والهدَّ فانفلقت جميعاً
« ودوت دويّاً . وأرسلنا الصاعقة فشَقَّتْ صدر الارض
« واودعته حياةً حَيَّةً .

« وقام الكون فسبَّح باسمي ، إِنِّي أَنَا الخالقة الربَّة .
« ثم جاءت الملائكة ساجدين فقالوا : شَعَرَ الارض
« الاشجارُ ، ودمأؤها الماء ، ولا حياة فيها صاهبَاء .
« فأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق
« والزلازل والهدَّ فانفلقت جميعاً ودوت دويّاً . وأرسلنا
« الصاعقة فشَقَّتْ صدر الاشجار وقلب الماء واودعتها
« حياة حَيَّةً .

« وقام الكون فسبَّح باسمي ، إِنِّي أَنَا الخالقة الربَّة .

« ثم إِنَّا أَثَرْنَا فِي الْعَالَمِينَ نَقْعًا ، وَصَفَعْنَاهَا صَفْعًا ،
« وَهَيَّجْنَا الْاَكْوَانَ تَهِيَّجًا ، وَهَزَزْنَاهَا هَزًّا ،
« وَرَجَجْنَاهَا رَجًّا . فَوَضَعَ الْاِنْسَانَ الرُّعْدُ وَالصَّاعِقَةُ
« وَالْبَرْقُ . وَقُلْنَا : يَا آدَمُ أَخْرِجْ مِنْ ضَلَعِ الْعَاصِفَةِ
« الرِّيحِ وَالصَّاعِقَةِ الرُّعْدِ ، وَكُنْ فِيهَا النُّورَ وَالنَّارَ
« وَالْبَرْقَ . »

« وَقَامَ الْكُونُ فَسَبَّحَ بِاسْمِي ، إِنِّي أَنَا الْخَالِقَةُ الرَّبَّةُ .
« وَقُلْنَا : الْاِنْسَانُ آخِرُ الْخَلْقِ . ثُمَّ قُلْنَا : يَا جِبَالُ انْتَبِئِي
« وَتَعَالَيْ . فَقَامَتْ فَأَعْلَيْنَا عِلَالَهَا ، وَاسْتَوَيْنَا عَلَى ذُرَاهَا .
« وَتَصَلَّبْنَا أَبَدًا صَخْرًا . وَأَمْسَكْنَا الرُّعْدَ وَالْبَرْقَ
« وَالصَّوَاعِقَ الصَّعْقَاءَ . وَأَقْرَرْنَا الْكُونُ إِقْرَارًا .
« وَحَبَسْنَا فِي صَخْرِ الْجِبَالِ الزَّوَابِعَ الصَّلْبَةَ . إِنِّي أَنَا
« الْخَالِقَةُ الرَّبَّةُ . »

« وَجَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتْ : إِنَّهُ قَدْ نَسِيَ الْاِنْسَانُ اسْمَ
« صَاحِبِّهِ ... »

الحجرات الثلاث

(معاً)

صَدَقْتُ صَاهِبَاءَ .

هَلَّهَبْنَا هَلْهَبَاءَ .

سُبِّحَتْ صَاهِبَاءَ .

الحجرة الثالثة

(للاولى اختها)

أَلَا نَذْهَبُ أُخِيَّةَ ، يَا حِلْمَ وَيَا رَحْمَةً ، فَنَهْمَسَ إِلَيْهِمْ
بِحِكْمَةِ الْحَجَارَةِ الصَّلْبَةِ ؟ هَيَّا نَعْلِمْنَهُمْ حِكْمَتَنَا الْحَقَّةَ ،
لَا يُحَوِّلُهَا شَيْءٌ وَلَا تَصْفَقُهَا صَفْقَةٌ ، لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا
تَسْكُنُ وَلَا تَفْنَى وَلَا تَبْقَى : دَوَامٌ فِي الرُّوحِ وَسِرْمٌ
بِاطِنٌ .

هَلُمَّ نَعْلَمْنَهُمْ ، وَنَمْنَحُهُمُ السَّكُونَ وَالْيُسَّ وَالرَّاحَةَ ،
وَنَهْدِيهِمْ إِلَى الدَّعَةِ الْجُسْنِ وَالْحِكْمَةِ الصَّلْبَةِ ، وَتَرْكُ
الْجِدِّ وَالْجُهْدِ وَمَعَانِدَةِ الرَّبَّةِ .

صوت هاتف

اهل الوادي قوم صاهبَاء . اسمعوا النبي .
(تسكت الحجرات الثلاث ويصغين ويخشعن)

أمر النبي .

حُرِّم عليكم أن تقربوا الغرباء .

أو تكلموهم .

أو تعينوهم .

الحجرة الثانية

(همساً لاختها)

تُرى أقرّر امره باغلبية اصواته أم بالاجماع ؟

الحجرة الاولى

(همساً)

اسكتي ، لا تبوحى بسرّ الآلهة والانبياء ، سرّ حكمتهم

وسياسة السماء .

البغل

(يحدث نفسه)

أما انا فقد سمعته وسامعه لغيلان ربّي .

صوت هاتفٍ ثانٍ
أيُّها الناس اسمعوا وعوا . وإذا سمعتم فاكتموا .

الحجرة الثانية
(همساً لاختها)

أمّا هذه فسرقه غير خافية . سرقها النبي لقس بن
ساعدة •

الحجرة الاولى
(همساً)

اسكتي ، فقد يسمعك الهاتف ويغتاض النبي . اسكتي
وتصلبي •

تسكت الحجرات الثلاث ويهمسن :
هلهبا هلهباء ، سبحت صاهباء . ثم
يسكن ويرقدن وقد تصلبن وعدن
حجرات ...

ويسمع زلزالٌ عمل البنائين ورجال
غيلان بمنقطع الوادي ، يحركون
ويرفعون ويصرخون ويجهدون •
ولا تعود ميمونة منذ يومها . ولا يري

كاملَ النهارَ أمامَ الكهفِ والخيمةِ ،
الآنَ الحجراتُ تتململُ ساعةَ بعد
ساعةَ فيسقطُ عنها بعضُ الغبارِ ،
كأنَّما ينغصُ نومها دويُّ الصخورِ
والمعاويلِ والآلاتِ والدواليبِ ...
ويقولُ البغلُ :

البغلُ

(كالترّاجعِ من تفكيرٍ بعيدٍ)

إذا أُصابَ الحجارةَ جنونٌ انقلبتُ جوارِي . إنَّ جنونَ
الجمادِ الحياةُ .

المنظر الخامس

في صباح يوم من الايام ... وقد
مضى على أول القصة ستة اشهر وكاد
يتكامل السد .
يُرى غيلان واقفاً أمام الخيمة ينظر
نحو السد . ثم يلتفت نحو الخيمة
ويدعو ميمونة .

غيلان

لو أسرع يا ميمونة . إني أرى أصحابنا مقبلين الى
السد ، وأحبُّ أن تنظريه في سكونه وعظمته قبل ان
يشرعوا في عملهم ، ويقوم الغبار ، وتعلو جلبة الرجال ،
وتدوي زلزلة الصخور ، ويتنفس السد أنفاسه
الشديدة .

ميمونة

(من داخل الخيمة)

أَوْ تخاف أن لا أقدر عليه في زلزله وأنفاسه ؟

غيلان

نعم يا ميمونة . لا نك لم تتعوديه .

ميمونة

(وهي بارزة من الخيمة)

مَنْ لَمْ تُخَفِّهِ الْجِبَالُ لَا يَخَافُ السُّدُودَ . أنا اليك .
هذه العقبة .

تأخذه من يده وتسلك به العقبة .
فيذهبان كالمنحدرين إلى السد .

غيلان

ما رأيك من يوم نزلنا هنا أنشط من هذا الصباح ...

ميمونة

(متضحكة)

لأمرٍ ما في النفس يا غيلان كان النشاط .

غيلان

وقد أبقيت إلا اليوم أن تنزلي إلى السد .

ميمونة

لأمرٍ في النفس يا غيلان كان الالباء .

غيلان

لكنه لا ينشط ياميمونة الا المؤمنون. اني اراكِ منت.

ميمونة

لا أدري أ آمنت أم لا . لعلني آمنت أو سكنت .

غيلان

مستحيل أن أسكن أو تسكني . لان حياتنا مُفَعمة
عقباتٍ وثنايا وارتحالاتٍ واسفاراً ، خلواً من كل
وصولٍ ونزول ، وكل قرارٍ وسكون ...

ميمونة

هذا أنت تقوله .

غيلان

وانت ما تقولين ؟

ميمونة

لا اقول شيئاً . وإنما اريد أن أرى السد .

يصلان الى مُنْعَطَفٍ من منعطفات
العقبة يشرفان منه على السد بمنقطع
الوادي فيقف غيلان وتقف ميمونة .

غيلان

انظري ...

ميمونة

(تلتفت الى صفاة عظيمة على يمين العقبة)

(مُعلقة في الهواء فتقصد اليها وتقول)

هذه الصفاة كالسدّ معلقة في الهواء تدعو الى الجلوس .

وأحبّ أن أعرف هل يجد القائم على المعلقات في

الهواء دُوراً ، وهل تجد يا غيلان دُوراً إذا قمت

على سدّك المعلق في الهواء .

تذهب فتجلس على الصفاة ، وتصرف

وجهها الى الابعاد والسدّ تحتها

واعماق الوادي .

غيلان

(منكراً لقول ميمونة)

السدُّ راسخ الاصل في الارض .

ميمونة

السدّ معلق في الهواء .

غيلان

أنت مجنونة •

ميمونة

كذلك تقول الجنّة للجنّة منهم ترى ما لا يرون :
أنت ما أنوسة •

غيلان

ألا تجدّين ؟ بل انظري السدّ وعظمته القائمة •
انظري الصخور قامت فغلبت صاهباء والقحط والجبل •
انظري المياه مُتَكَيِّفَةً إلى السدّ، تترقّب أن تُروى وتُحيى

ميمونة

ما كانت المياه يوماً في حاجة إلى الاتكاء • المياه من
شأنها أن تجري وتجرف ، وما عرفت مياهاً كَسَلِي •
الماء من أنشط المخلوقات • فلا تَتَّكِيهم الماء بحبّ
الاتكاء والراحة •

غيلان

لقد طلبتُ مراراً فلم أعرف ما سبب تحاملك على

السّد . فما تريدین ؟ ما تعنین ؟ مالك والسّد والفعل
والخلق ؟

(لا تقول ميمونة شيئاً وتبقى مطرقة)

ومع ذلك ها إنك تنظرين السّد ...

ميمونة

أيّ سّد يا غيلان . إني أفكر ...

غيلان

وفيمَ هذا الفكر الصارف عن السّد ، القاطع
للكلام .

ميمونة

في الصدق . في التجرد . في العراء ...

(يخفق غيلان برأسه كالتضجّر)

... لو سألتك يا غيلان ان نطلّ يوماً بالكهف ، وأن
تنزع الثياب وأدع الثياب ، وان نقضي معاً يوماً عارياً
خالصاً طاهرًا ، لا يفصل بيننا كلام ولا حركة ولا
ثوب ، وأن تجبّني ولا تكلمني وأحبك ولا أقبلك ،

وتمسّني ولا تختصّ بلذة ، وألبسك فلا امتاز عنك
باحساس... لو سألتك لقلت : أنت مجنونة . ويكون
حياؤك أقبح من كل فحش . وتكون كجميع الناس
يستحيون أن يعرّوا ويشتملون باكشف الثياب . وما
رأيت الاّ طهارة الحيوان والوحوش والارض والنور
والقطة تقع للقطّ والناقة للفحل والارض للنار ، ولا
تستحي ولا تختفي ولا تتكسر...
(تمسك لحظة)

وإني بينما كنت أنت منذ ستة أشهر الى سدك وفعلك
وجهدك خلقك ، خرجت عاريةً الى الحيوان
والوحوش والارض والنار والنور . طهارة الكون .
طهارة الحياة . عراء الكون . عراء الحياة . طهارة
الروح . عراء الروح . الصدق...

وما احتاج الى سدّ الاّ من خشي التجرد ، وجبن
عن الصدق والعراء . وما استحيى من كشف النفس
الا من كانت نفسه في قبح العورة . بل انظر الصفاة

تلقاك بكامل جسدها ورأسها وأنفها وذيبيها وبكارتها
ولا تستحي . وانظر سدك كالغطاء يستر عورة نفسك
ويُخفي علتها وقبح منظرها ويوهمك القدرة ويستر
العجز ...

غيلان

لا صدق يا ميمونة ولا عراء . ولا غطاء . السد سد .
ميمونة

وغيلان غيلان !..

(في عزم)

... إجلس وهات الحساب .
ألم تُسرق جميع آلاتك في الشهر الاول ؟

غيلان

بلى . ولكنني جعلت من الايدي والعزائم والسواعد
والقلوب صواقير وفؤوساً ومعاويل . وغلبت الصخر
بالصخر ، واستغنيت عن الحديد والصواقر والفؤوس
والمعاويل .

ميمونة

ثم ألم تذهب الحميات بنصف رجالك في الشهر الثاني؟

غيلان

بلى . ولكنني قلت للنصف الباقيين : خذوا بثأر أصحابكم
فاغلبوا ما غلبهم ، وأقيموا سداً أرادوه فماتوا فيه .
فعمل الرجل منهم عمل ثلاثة . فكأنما ورثوا عزم
أصحابهم وسرت اليهم قواهم .

ميمونة

ثم ألم ينفجر عليك ماءً دَفَقَ في الشهر الثالث جرف
أعلى سدك وحطّم شهرين كاملين من عملك
وجهدك؟

غيلان

بلى . ولكننا تألّبنا على المياه . فرفعنا ما حطّت وعمرنا
ما أخلت ، ورددنا السيل ونقينا الجرف .

ميمونة

ثم ألم تهلك في الشهر الرابع قافلة الحديد أثناء طريقها

اليكم حِمْلًا وحاملاً ؟

غيلان

بلى . ولكنّا قطعنا جذالاً عظاماً صلبة من الغاب ،
فأقمناها مقام الحديد .

ميمونة

ثم ألم تُصَبِّك منذ شهر حمى هَدَّتْكَ وأَقْصَتْكَ
عن سَدِّكَ ، وترَكْتَ رجالك كالْعُغْمِي أو كالأيتام ؟

غيلان

بلى . ولكنني أقيمت كبير البنائين مُقامي ، فقام بالامر
أحسن قيام .

ميمونة

وكل هذا ، كل هذه القَوَمَاتِ بعد النكبات ، لأنك
كنت تخشى ان تخسر السد وتيأس منه ، فتتكشف
العورة وتبين العجز ...

غيلان

لا يا ميمونة . لا . إنما كان كل ذلك بضرورة الفعل

وقبوة الخلق •

ميمونة

ولكننا دخلنا منذ منذ أيام في الشهر السادس يا غيلان •
واني لأجد في النفس توقُّعا وخوفاً •••

غيلان

(متضحكا)

وميم؟

ميمونة

لا أدري ••• لا تُعدُّ الى السدِّ يا غيلان • إني أخشى
عليك منه • لا تسدِّ عيني إليه •

غيلان

ميم الخوف؟

ميمونة

لو مُتَّ يا غيلان •

غيلان

انا لا أخون ما أعدُّه بنفسي من الاعمال • والموت

خيانة •

ميمونة

ولو مُتَّ مع ذلك . الموت لا يبالي بالايفاء بالوعد •

غيلان

سؤال ولا وجه للسؤال • نحن لا نموت إلا في آخر

القصة ...

ميمونة

والسُدُّ عندك قصة ؟

غيلان

وما ترينه يكون ؟ كل شيء قصة • بل انظري يا

ميمونة . لو مُتْنَا الآن لقطعنا حبل القصة وأغضبنا

الاقدار . فهي تمتد في الحياة لاجل القصة وتُمت لاجل

القصة : كمجنون ليلي واهله وليلي واهل ليلي ، عاشوا

وارتحلوا ونزلوا وأحبوا وكرهوا وقطعوا بين المجنون

وليلي وفعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا ، ليكونوا قصة

من قصص الادب • او كالانبياء يوحى إليهم في

الاربعين لا قبل ، ويموتون في الستين لا قبل ،
ويولدون في مراح غنم لاغيره ، ويُصلبون او يشبهون
الى الناس ولا يحرقون ، لتُصنع فيهم قصص الانبياء...
والآلهة والاقدار كالعجائز والشيخ مولعون
بالقصص . فجنح لا بد ان تبقى احياء الى آخر القصة .
الحياة والموت لا قدر فيهما يا ميمونة ولا قضاء . انما
هما من أمر القصة ...

ميمونة

(هازئة)

اذا مات الرضيع وإن كان من أخصب الاطفال صحةً ،
فاعلم أنه لا فائدة فيه للقصة . واذا عاش الوليد حتى
شاخ وعُمر وان وُلدت معه مائة آفة ، فهو لا بد
منه للقصة !

غيلان

وما يُدريك ؟ فقد يُراد من الرضيع الفاني بأبويه
قصة . قصة الحرمان ، من الزمان ، من المدى ...

واهزلي أو جِدِّي فهو ما قلتُ : الحياة وظيفة
الانسان في القصة، والعمر مداها .
ولوشئنا ان نموت الآن ولو قتلنا أنفسنا لما مُتتا .

ميمونة

اتعلم يا غيلان ان سدك لا يستقيم لك إلا ...
يقف غيلان فجأة ويصرف بصره
إلى جهة السد بآخر الوادي .

غيلان

(وهو يمعن النظر الى جهة السد)

إلا ... ؟

ميمونة

هل جعلت فيه حجراً أسود ؟

غيلان

(كالناشيء فيه اضطراب او كالذي بدأ يضيق بالكلام)

ولم أجعل فيه حجراً أسود ؟

ميمونة

إذن لا يستقيم . ألم تر إلى الكعبة ؟

غيلان

(كمن حل به اليقين بمصيبة)

ما هذا يا ميمونة! ... ما أرى؟

ويندفع ، فتقوم ميمونة فتظفر
فترى دخاناً متصاعداً من جهة
الجذال المسند إليها بناء السدّ ،
ويلوح لها الرجال على السدّ
يهدمون أو يرمون من أعلاه
حجارة على النار .

ميمونة

هذا ما كنت أخشى .

وتندفع إثر غيلان ، فينحدران
في العقبّة سريعاً ويغيبان عن البصر
نحو الوادي .

المنظر السادس

في مساء عين ذلك اليوم . . . ليلة
مقمرة وجو كمُشاع اللبس كأن
ميمونته وغيلان والخيمة والجبل فيه
في غمامة بيضاء .

ميمونته مستلقية على سرير أمام
الخيمة ووجهها إلى السماء تتفالق
فيها النجوم . وغيلان واقف
كالصنم الابي . . . والبغل رابض .
يعوي الذئب ثلاثا ويقفز البغل .

ميمونة

وعُواء الذئب أيضا يا غيلان .

غيلان

وأَيِّ شَأْنٍ لَنَا فِيهِ؟

ميمونة

الذئب صوتك يا غيلان .

غيلان

(يتحرك فيذرع الفناء جيئةً وذهوباً)

(كمن قامت فيه حيرة)

الذئب صوت هذه الارض . فهي عليلة ، تشكو
الوجع على ألسنة حيواناتها وانبيائها ، وفرقة صخورها
في الليل ، وحفيف طيرها في الظلام .

ميمونة

الحيوانات والانبياء والصخور كلها تنذر يا غيلان .
والذئب يألم .

غيلان

(في شيء من الغيظ)

الا يخرس هذا الذئب ؟ الا يخرس كل شيء ؟
أليس في استطاعة الكون ان يصمت ويسكن ساعة
واحدة من الابد ؟

ميمونة

هذا غضب المغلوب يا غيلان . اجلس او استلق
مثلي .

لا يقول غيلان شيئاً ويذهب
فيستلقي على سريرته بقرب ميمونة .
ويمسك ساعة ، فلا يُسمع الا
انفاس الليل . ثم تتكلم ميمونة .

ميمونة

(بهدوء أوّلاً)

ها قد طُردت من الخيال والأمنية ، وزُحزحت
وزال القرار . فانت في نفسك مقصور عليها وقد
اشتملت بالعجز والغضب ... خرج عنك رجالك
وخذلوك ، وسدك لا يزال يجهد أن يتم وأنت لا
تنزال تجهد أن تقدر . فاذا أنت تهوي وتتقيد وتصطلي
نارك . وتريد ان تطفئ غيظك بالكفر والطغيان
واللعنة . غالبت صاهباً تظن أنك الغالب . فجمعت
عليك كلمة رجالك وأوحت اليهم الشقاق والنفاق ،
وتركتك وحيداً مؤلماً حقيراً ، وتركت لك هذا
السدّ متصفاً صورةً منك اليك ...

لقد همُّوا أن يقتلوك في قيامهم عليك ، وأن لا

ينصرفوا الا أن يهدموا سدك تهديماً . ولكن
صاهباً شاعت بك لطفاً او غاية قسوة ، فصددتهم
وأبطلت أيديهم عنك . حتى لقد رأيت أيديهم
يرفعونها بالضرب او الهدم ولا تضرب ولا تهدم .
حركات سكونا كصوتك ينقلب سكوتا . فكان قوة
السواعد والأيدي تختنق في العضلات اختناق صوتك
ينشأ في صدرك ويموت في حلقك . ولم يصبك
الا نار في اليد أحرقتها . وسلمت وسلم سدك .
ثم جاءت الهواتف فقالت : « كفى عناداً واستسلم .
فما قدرك غير الشروع . كبعض الافعال من
أخوات كاد . فلا تطلب بلوغاً الى غاية ، ولا تطمح
الى قمة ... »

فلنزهد ولنستسلم يا غيلان . دع عنا السماوات
والاعالي ولنكتف بالارض . وانك ان أتممت
الفعل وأنهيته فقد قتلته . فليق هذا السد غير تام .
ليبق له خلوده يا غيلان . دعه بلا نهاية ... ولنكن

لا نفسنا يا غيلان لا عليها غيرها. لنكن انتظارا للحاضر
لذيداً، ولنكن القريب البعيد، اللذة الحاضرة والسعادة
الحاصلة نستبعدهما كالتمني وهي واقعة. لنكن مقدمة
لنفسينا وتمهيداً. نتتظر النعمة وهي حاضرة. ونتوقع
المتعة وهي شاهدة. وتنتظرني وأنا بين يديك،
وانتظر وأنت فيّ. لنجعل الطلب في قلبينا: أطلبك
وأنا حاملتك وتطلبني وانت حاملي. لننس الممكن
يا غيلان. لنكن الفجر ...

غيلان

نعم ... ذاك عذر جميع من يجبنون فيضعفون عن
الجهاد. يقولون: لا حول ولا قوة الا بالحققة الواقعة،
والحق الواقع لا يُقاوم، والممكن لا يستقيم. وما
يقولون الا باطلا وهماً. لان الحقيقة الواقعة وجميع
العقبات لا تحول دون الممكن يا ميمونة .
لا تَمَنَّ السد .

ميمونة

إمكاناتك يا غيلان ، أعلمُ أنها بديعات نفسك وأنها
العدم يتصوّر لك وهو يريد أن يكون ... وإنها لمن
باطن آلامي . وانها للعظمة والرزانة ، وحقيقة الحمل .
ولا نكون بدونها الا خلاء . لكنّ وضع الامكانات
وضع الحمل . وليس أحقر من حامل بعد وضع ، فلنبق
على غنانا وعظمتنا ورزانتنا ، وليبق معنا ما يَمَلأُ
النفوس ، ليق السدّ في نفسك إمكاناً حملاً .

غيلان

إن من بين الساعات لساعةٌ يا ميمونة لا ينقص فيها
الخلق والوضع منك شيئاً ، ولا يذهب بشيء من
حملك . ساعة يتصور فيها الممكن بصورة الكائن الواقع
دون ان يتقيّد بقيد ولا يُحدّد بحدّ . ويتقلب فيها
الامكان والارادة الى قوة من نار وحديد أشدّ من كل
حديد وقوة . هي ساعة أقصى الصعوبة . وإني أراني
فعلت ما فعلت ، ولقيت ما لقيت من المصاعب في

فعلي ، ولمّا أُصِلْ الى هذه الساعة •
وانها لساعة أعظم من صاهباء وأعلى . أعظم من
السماء وأعلى . وأعظم من جميع الآلهة وأعلى . هي
ساعة كمال الخلق .

طريقنا لا تزال يا ميمونة طويلة ...

ميمونة

ألا تخشى علينا الغشية والاعياء والضعف ؟

غيلان

هل تذكرين أسطورة أسال ونائلة ؟

ميمونة

نعم ... أسطورة الرجيل • سمعتها منك في ليلةٍ
كُنّا فيها إلى الرجيل •

غيلان

... جاءها يوما - وكانا قد بلغا أقصى جمالهما وأبعد
حسنها - جاءها فقال : إني راحلٌ عنك • فقالت : وما
طريقي بعدك ؟ فقال : العقبة الوعرة • قالت : وما

الراحل بك عني ؟ قال : كرهُ البيوت الثابتة ، لا تتقل
ولا تتحرك . وكانت عيناه وهو يقول إلى أبعَد من
الافق . ثم قال : ولئن اكتفيتُ بك فاكْتَفَيْتَنِي إني
إذن لجان . وقد حذرتُك ان تكوني ظلي وبرودتي
ونهاية طريقي . فان شئت أن أبقى فلتفني .

وادركت نائلة أنه عاوده الرحيل وكرهُ الشجرة
على الطريق باردة الظل تدعوه أن يقف ويستريح .
وكان يقول : لا تكون الطريق طريقا حتى تكون بلا
نهاية . وكان يخشى ان تنقلب الحركة والرحيل والشوق
الى صخرةٍ وقوف . فلما ادركت أنه عاوده الشوق
قالت : افعل ما ترى .

فأخذ عصاه وذهبت به الطريق ... فهو عليها
الى الممات .

ميمونة

أو لعل نائلة ما خسرت أسالا الا لانها تبرّجت له
وتصدّت . وليس من فحلٍ الا وهو شديد الزهد في

الضابغة الملقية نفسها • ولا من إله الا وهو شديد
الزهد في القربان الذلول الخاضع للذبح • إن كان
ذلك منها فقد أخطأت نائلة •

غيلان

إنما خطأ نائلة وخطأ صاهبَاءُ أَنَّهُمَا ثَابِتَانِ لَا تَتَقَلَّانِ
ولا ترتحلان •

ميمونة

« لَعْنَةُ الْكَوْنِ عَلَى مَنْ لَا يَنْبِي عَنْهُ الرَّحِيلُ »

غيلان

أهو من كلام الهواتف أيضا ؟

ميمونة

نعم يا غيلان • ولكنك مُتَصَامِمٌ أَصَمَّ • لا تسمع الا
الابعاد لا تتناهى وخلاء عوالم الغيب ، ويُفزعك
الملاء •

ليمننك يا غيلان الجنون • أتذكر هامانَ تركناه في
اول طريقنا إلى السد ؟

لقد كنت تدعوه ان يتردد علينا . فاذا جاء سألته أن
 يشدك شعره ، وقلت انه من ابداع ما يسمع . وما كان
 الا هذيان مجنون . وما كان هاما الا ظلما وروعا .
 وكان على بعض الوجوه نقيضك ، ولم تتعرف من
 أمره غير ذلك . اما أنا فقد حاولت أن اتعرف ...
 فهل تعلم يا غيلان ما كان سبب جنونه ؟
 وُلِدَ هاما ...

(يتضجر غيلان)

لا تتضجر ، فلست قاصّة عليك كامل حياته - وُلِدَ
 أحمر ريان شهّي الوجه والقم والعين . ثم نشأ فكان
 فيه صمت وفيه الى فساد الاخلاق ميل . وتررع مغلقاً
 لا يبوح فمه بشيء . مُخَنَّنًا لا يردّه عن لذته شيء .
 وكان مفعم النفس ظلما كالضالين في طغيانهم
 يعمهون . سنين طويلة . فريداً وحيداً لا أب ولا
 أخت . ترمقه عين أمّ عجوز وحيدة لم يعرف غيرها
 امرأة قط .

ثم شَبَّ فأنكشفتْ نفسه لعينه فإذا هو الثمرة
الدائنة الفاسدة ، وإذا شيطانه الباطن ودودته المرأة
والشهوة . ولم يكن لبلاده غير السماء والزرقة .
فقال : أريد أن أُقبل السماء والزرقة . فقالوا : إنه
مجنون أو شاعر . ثم نشأ العقل ففقح وتشقق عنه
الجسم والشهوة كتنقيح الريح الأرض عن البقل . ومزق
هامان جلده بظفره ، وابتدع النسيان ليصرف عنه الشهوة
والحلم والجسم . وكانت تأتي عليه ليالي الصيف
كدعوات شدادٍ لا تُرد ، وتتواتر عليه الاطيفاف
والمحسوسات ، وتتقد شفتاه ، فيقوم فيعدو فيقع في
ماء البحر كالقزع الملدوغ . وكان يجلس الى البحر عند
الآصال ، والشمس الى الفتور ، فتبرز له الفيات
رياحين ونوراً تماثل يسبحن في الشمس . فيلتهب
ولا يجد الى صرف الكلاب المحيطة بهن سبيلا ،
ويرسل زفرات العفيف يرغم على العفة . وكان له
في النساء ، وخلاء الجزيرة منهن وصبره عنهن ، جهادٌ

حديد . وسكنته الحيرة واعتلّ الجسم ، وجحد هامان
 ربّه . وأوهمه العقل أنه يخلصه من شهوته وجسمه
 الصائم ، فهمس فيه : لا تُقِمَنَّكَ صرّحاً عظيماً . وسعى
 هامان ان يعلو ويمتن عقلاً ، ويعظم ويشتدّ روحاً .
 وتوتر عقله حتى كاد ينقطع الوتر وتطير السيّة .
 ووجد هامان اتساع الابعاد لا تُحدّ . وكان التدمير
 والهدم . فهدم شديداً . وهدم مغتاضاً . وهدم العقل
 والحس . وخلق نفسه خلقاً جديداً . أو ظن أنه . . .
 ولكنه لم يلبث ان علم ان الحس بقي تحت العقل
 كخامد النار ، وأنه كان للعقل حداً وقيداً ، وأن العقل
 كان للحس كال كبير للنار . . .

ثم تهيأ له الامر فارتحل عن الجزيرة وعبر
 البحار ودخل مدينة سیرام . وولج نهر أهلها من
 رجال ونساء . وتهيأ له منهم حسان لا تُحصى .
 ونسي العقل . وبلغ أقصى الشهوة وما تورث من
 دُوار وغشية ؛ وظنّه الارتواء والشبع . وما كان

ارتواءً ولا شبعًا . فقد كانت كل ذروة تهوي به إلى
أسفل الجوع . وكل متعة إلى أبعد الشهوة . وكان
يسكن بعد كل شبعة ساعة . ثم اذا شؤكة او إبرة
تخز سكونه . فيعود الى الحس والنساء واللذة . . .
ثم احتاج أن يعود الى الجزيرة، فعاد، وامتلكته
كذي قبل . ونظر فاذا الجسم قد غلب العقل ، وثاقل
عليه كالوطب وأماته . واذا الصوم بالجزيرة يعود الى
الجسم والشهوة . وعلم أنه قصر عن نفسه وقصرت
عنه نفسه . فدخله من ذلك اليوم الجنون . . .

وهذا الذي كنت يا غيلان تسميه الشاعر
الاشعر ، وتدعي له مدى وتعيده فضلا . وانما
كنت تحبه لانه كان نقيضك . لانه كان نقي ما
كنت تريد إثباته في نفسك: الروح والعقل والايمان
بالانسان والقوة . لانه كان غليب الجسم والوهم
والشهوة ، فانت تريد الاخذ بثأره . لانك تظن أنك
سلمت مما أماته من المقتضيات الجبارة الشديدة .

لأنك تحسب أنك بالغُ الفعل والتكوين والخلق ،
وهو لم يبلغ منه شيئاً . لأنه أماتته الحقيقة الواقعة
وخنق الطين امكاناته ، فسقط وتساقط في باطن نفسه
أنقاضاً . كانقاض بيت متهدم وقعت في جوفه . لأنك
تظن أنك فاكٌ للعقال ، قاتلٌ للحقيقة الواقعة ، قادرٌ
على الممكن ...

(تسكت ميمونة لحظة . ثم ...)
انك يا غيلان للعتي والكبر . وانك للخلاء والضعف
والجن . انك الثور يصعق خواراً الى يوم يخصى .
فاذا خصي ذلٌ وأمسك . ولا بد يا غيلان ان
تخصى ...

غيلان

فيم كل هذا الغيظ وحرارة اللهجة؟ فما استحق الثور
هذا الشتم ولا هذا الغضب. الثور من خيرة الانعام .

ميمونة

لا تتصنع يا غيلان الطمأنينة . لا تتصنع رضى النفس .

لا تُمارِ • انك الضعف والخلاء والجبن •

يبرز من ظلمة الليل الناشئ خيال
لطيف كاختلاج جناح الحمامة .
ويقوم على رأس غيلان • فتبين
منه العين قامة كالصعدة ، وشعرا
كرغوة القمر ، وجمالا ونعومة
ورواء ... تلك مَيَارَى .

غيلان

وأنت يا ميمونة ؟ ألسنت الشك والحيرة ؟ والصيحة
في الصيحة ؟

ميمونة

او عينك التي لا تُمارَى • عينك التي ترى • لا
تَعشَى ولا تعمى •

غيلان

ان أنت عيني فعيني من أغرب العيون • عيني لها
أذنان ورأس ورجلان وصدر وذيان • وعيني تأكل
وتشرب ، وتعضب وتفرح ...

ميمونة

تأكل وتشرب وتغضب وتفرح • وترى أيضا
يا غيلان • وقد رأت صباح اليوم ...

(يسكت غيلان ويسكن)

نعم لقد رأيتُ صباح اليوم العمَّال والبَّائِئِين وقد
جُنُّوا في هذا الوادي وادي الجنون • وسمعتُهم
يقولون : لن نرفع بعد الساعة صخراً • ولن نبني
ولن نقيم سداً • ولا نحتمل اللعنة والنقمة ... فلما
قالوا وصاحوا صياح السباع تضري ، وهزَّتْهم ريحٌ
هو جاء تدوي ، وصاحبُهم ضوضاءٌ هولٌ الى الافق ،
وتصاعد الغبار فوق الطريق فقَصَّ فرارهم ، وخلونا
أنا وانت وخلا الوادي ، - نظرتُ فرأيتُ كل
شيء حولك يُسلم ويُدْعَن : رأيتُ الصخور طريحةً
تقول : لا جهاد . أَسْلِم . والسدُّ أبتر يقول : لا
جهد ولا جهاد . اذعن . والدنيا كلها بسكوتها
وانغلاقها على صياح العمَّال والبَّائِئِين وهدوِّها بعد

هَزَّةُ الثَّوْرَةِ تَقُولُ : لَا جَهْدَ وَلَا جِهَادَ ... لَا جَهْدَ
وَلَا جِهَادَ ... وَرَأَيْتُكَ قَائِمًا وَحَدُّكَ مَمْسُكًا يَدُكَ
الْحَرِيقَةَ ، وَقَدْ عَانَدْتَ وَاسْتَكْبَرْتَ وَأَيْتَ . وَأَنْكَرْتَ
الْهَزِيمَةَ . وَنَفَيْتِ الْإِنْكَسَارَ . وَصَرَفْتَ خَفَقَةَ الْقَلْبِ .
وَأَمْسَكْتَ دَمْعَةَ الْعَيْنِ . وَلَمْ يُسْمَعْ لَكَ تَوَجُّعٌ ، وَلَا
شَكْوَى تَبُوحَ بِحَيَاةِ وَرَقَةٍ أَوْ بَاقِي حَيَاةِ وَرَقَةٍ .
وَمَكَثْتَ شَاخِبَ اللَّوْنِ ، مُتَقَلِّبَ الصُّورَةِ ، صَلَبَ
الْجِسْمِ . كَالْتِمَثَالِ يَقَعُ فَيَنْكَسِرُ فَلَا يَأْلَمُ وَلَا يَفْرَحُ ...
وَرَأَيْتُكَ عَلَى ذَلِكَ يَا غِيلَانَ ، فَرَأَيْتُ غُولًا
كَمَا عَرَفْتُ فِي صَبَايَ مِنَ الْإِغْوَالِ تُصْصَعُ مِنْ مِلْحَفَةٍ
وَوَسَادَةٍ : وَجْهٌ مِنْ أَشْوَهَ مَا يُرَى وَهَيَأَةٌ مِنْ أَهْوَلَ مَا
يُفْزَعُ ... وَمَا تَحْتَ الْوَجْهِ وَالْهَيَأَةُ إِلَّا أَخِي الصَّغِيرُ
يَلَاعِبُنِي وَيُرِيدُ تَخْوِيفِي .

كَذَا الزَّائِفَاتُ كُلُّهَا يَا غِيلَانَ . وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ
زَائِفًا كَغَوْلِ الصَّبِيَّانِ ، أَوْ كَالطِّفْلِ الْخَفِيرِ الْبَاهِتِ يَسْلُكُ
طَرِيقَ الذَّنْبِ ، ثُمَّ يَقِفُ فِي بَعْضِ طَرِيقِهِ مَبْهُوتًا ، يَنْظُرُ

ما وراءه من براءة فاتتْ ، وما أمامه من شجرةٍ حرام
تُغويه وعقاب أليم يخافه . فينهدّ عزمه ويجمد ، فيقف
دون غايته وقد حاد عن نفسه وضلّ الطريق وسلّتْ
يداه وضاع رشده

تتقدّم مَيَّارِي ولا يراها غِيلَان ولا
مِيمُونَة ، خيالاً كالْحُلُم اللذيد وعُزْرِيَة
تقع للنفس ، كرفيف الريح ، وردِيَة
حمرَاء ، شذاها من زرقة السماء .
وتقبل على غِيلَان بجناحيها فكأنها
تهبّ ان تذوب عليه او تتلاشى فيه .
كالغمامة تشمله . ثم تتحني فتفيض
عليه مثل لقاح الازهار كرحمة السماء
ترشّ رذاذاً

وغِيلَان على أله لا يبوح ويسمع .
وميمونة تؤنّب وتقرع

ميمونة

(بعد سَكْتَة)

ولقد قلت لك مرارا : احذرْ يا غِيلَان وانتصح
بانذار الهواتف . وقصصت عليك ما رأيت من رؤيا .

فلم تسمع ولم تفهم . وذهبت الى سدك . وتركتني وحدي ..

وانفردت فترددتُ على القوم . ولم يكن عندي من امتع المتعة . بل كان ما ينشأ في نفوس القوم من التجبب والاعراض عند مروري ، وصمتهم حولي ، وامسا كههم عني ، من أمر ما تحتمل امرأة مثلي . ولكنتي مع ذلك غشيتهم وغشيت بيوتهم . وتأملتُ في الناس والحيوان والاحوال . وأمعت إلى الألوان والظلمات والانوار . وتعرفت العطور ، وحضرت الصلوات ، وسمعت الادعية . وتنشقت أرواحهم وعشتُ عيشتهم أياما . ثم جئتك فقلت : يا غيلان . ها أنا ذي بعد الاصوات الهواتف وبعد الذي رأيت من رؤيا . ها صوتي ، وها حر روعي في روحك ، وكلُّ روحك مفعمةٌ روعي . اليك نفسي ونصحي : ما قُدر لهؤلاء الناس وهذه الارض غير الظمأ والامحال واليبس والقحط . وإنهم أدر كوا من أرضهم

روحها ومصيرها فقالوا : إنها اقتضاء محض . تقتضي
الانسان أن يفنى ، كالصخرة تتميّن وتنشقق لتتجس
العين وتُخرج الحياة والماء . وانه يا غيلان لمن أو هام
الصبيان أن تحسب ان الظماً يقتضي السقي . والصبي
الغمر لا يخطر له ان الظماً قد لا يقتضي غير الظمـاً
ولا يدعو سوى القحط . فاحذر يا غيلان أن ينتقم
الظمأ وأن ينتقم القحط ... ثم قلت لك أيضا : هل
تفكرت في غريب شأن هؤلاء القوم يعيشول في هذا
الجليل وهذا الوادي منذ آلاف السنين ؟ وهل طلبت
سرّ أمرهم فيها ؟ إنهم لم يطعموا غير الظمأ المطلق ،
ولا وقع لافواههم فـاكهة أو ثمرة أو لحم أو خبز لم
يذهب الحرّ والشمس بليته ورطوبته ومائه ، ولا أكلوا
غير عصارة الرمال قط ، ولا شربوا ماءً الا ما يمتصّون
على الحصى النـديّ في الفجر . وليس الذي تقتضيه
هذه الارض وتدعوه به غير عظام الجثث اليابسة البيضاء
وغير الرخام والمرو والصفصا . منه ما لها من بأسٍ

وشدة ، وعنه مالها من عظمة وقوة ...
قلت ذلك وكررتُه حتى ملته • فلما ملت قلت :
ان كانت هذه الارض تقتضي الصلب فسنعطيها
سداً صلداً ...

(تسكت ميمونة كالمثقل . ساعة ثم تقول)
وليس في شأن الزائفين العاجزين المتقادرين أمرٌ
من العناد وأدهى •
وانك يا غيلان تُعاند • حتى بعد الذي جرى اليوم
تُعاند •
والعتبي هو القاتل •

غيلان

(بصوت خافت وانه)
لو اجتمعت الاكوان لترحى وتقتل لما اصابته غير
أسراب الطيور وجماعات الناس وقُطعان الغنم ...
وأما مَنْ كان واحداً أوحد فاذا صعقته الصاعقة فهو
الذي أهلك الصاعقة •

يسكتان . ويبقى غيلان في تلاطم
من نفسه كاضطراب العواصف .
ساعةً تم تستأنف ميمونة وكأنها
تحدث نفسها ، لا غيلان ولا غيره .
فتقول :

ميمونة

وليست الشجاعة ولا الجرأة ولا القدرة ولا البأس ان
تهدم نفسك لتبني السدود وتفعل وتخلق . وما
أحقّر الفعل والخلق عذراً عن تهديم نفسك !
الشجاعة أن تصبر على الشك ويقوى له قلبك . أن
يسع صدرك التناقض الملائم الحصب . كالنور يهدم
الاشكال بما يقتضي الجمال ويبني ، بلا كيان ولا
جوهر ، معنى محضاً وروحاً . الشجاعة أن ترضى
بنفسك وقصورك ونقصانك وعجزك . أن ترى شأنك
ذاك ولا تندك ولا تحزن . أن تجاهد دعوة الامكانيات
وتشويشها لو جدان الوجود وإغراءها بالفعل والخلق .
أن لا تطمح إلى الجبال وترضى بالاغوار والوهاد ،

وتأكل من الارض الغبراء فتكون لك لذة ولا تكون
لك سواها متعة . . .

إني يا غيلان بلغت جهدي . وسئمت هذه الاعالي
والسماوات، والقسمم والذروات لا تُدرَك . سئمت
الجهود والمسااعي تخفق . . . وقد أخفقت يا غيلان
حتى في حبِّي وحبِّك . . .

يا غيلان لغت جهدي . وملت الاعالي والسماوات
لا تُبلغ والجهود لا تُفاح . . .

كفّاني التصاعُد والتعالي كفاني ! فليهب نفس من
ريح الوهاد الوضع الثقيل ! ولينفجر السدم من عيني
او وجهي وليملاً فمي من جراحي ! ليعُد لي الشعور
بنفسي وحياتي وجسمي ! لا نزل . . . ليجتذب
الأساسُ إليه القمة ! لتسقط الأُعلي على الاسفل !
تعيلاً بالدمار . تعيلاً بالقضاء !

تمسك ميمونة عن الكلام وتبكي
الى القمر والنجوم وحدها . فتصل

دموعها صامته حارة أليمة كالعين في
صدرها . وتذهب نفسها في البكاء
فينشأ في باطنها عين جارية كالجواني
ينقلب عيوناً وسواقِي في أساطير
اليونان ...

وتتهدأ ميارى للكلام . فيصرف
غيلان وجهه إليها وصدره . ويتجمع
عليهما نور القمر فكأنه لا يضيء
سوى غيلان وميارى ، وتتطمس
ميمونة في الظلام وتبقى على دموعها
حديث وحدتها ...
وتتكلم ميارى ...

ميارى

وقفت خلفي إليّ وأنا إليك . وجعلت رأسك على
كتفي وشعري . وتناظر وجهانا في مرآة الأفق لا
يتناهى . وطوّقتُ رأسك بذراعِي ، فإذا أنا حاملة
اناءً خمرأً وصنماً معبوداً وعالماً حيّاً . واذنجن أحسن
الحسن . واذنا حسننا نقي لكل شيء سوانا ، وانكار
ودفع . وهان عندنا الأمل والعزم والخيال والوهم ،

وهان في أعيننا الكونُ . وجاءنا الاحتقار والاهمال
والزهدُ ، وانقضى الحرصُ ، وحلَّ بنا الكبرُ والطهارة
المحضُ . واندفعنا ثبُّ وثباتِ الاغوال العواصف .
وطلقنا وانكسرت عنا الروابط . وقامت لنا بدائع
الدنيا . . .

حتى صار عندي للماء عشق ومن الظمأ والقحط
ضجر وكرهٌ . وكرهتُ كما كرهتُ إسلامهم
وصاهبَاء . وجئتُك دفقاً يُؤتِي وعينا تُورد وجنةً
خُلدي . على أن كنتُ قبلُ لا اهوأك ولا احبُّك .
وكنت رأيتُك في صخورك ومعاويلك وحديدك
ورجالك وسدك عليك العرق كالسواقي ، فقلت : انه
من جنس مَنْ سبقه من المحاولين العُجْز . رخي
ضُفءٌ . لا يرى غير الماء للقحط دواء . ويتتصف
الطريق ثم يهزل ويضعف . ويقتل ولا يُميت .
ويوقد ولا يحرق . ويحب ولا يعبد . ويقول ما
يقوله قومه : لا سبيل الى الخلق المطلق . ثم نظرتك

تُرغم القاعدة على الفوضى، والجهادَ على ما لا يتناهى
ولا يُحصَى . ورأيتك في الجهاد كالمقاتل وحده . في
دغل من السيوف والاعداء . او كوالج عيص فيه
اشتباك واهدابٌ كثيفة . يتقدم ولا يُحجم . ويقطع
الاهداب ويعضد . سائر السيل لا تتوقف . . .
فجئتُك واحيتك .

و كنت انتظرُك من اقصى مبدأ ايامي وعُمري .
حتى كدتُ أنفد . وحتى كدتُ أقع للشمس أهديها
نفسي وجسمي . وقلتُ : ليس غيرها جديرا بدمي
ولحمي ، وليس غيرها يستحق جسدي الرخام المغربي ،
ولذتي وألواني وظلّمي . ولا غيرها أهلا لعبادة
كاهداء بكارتي وغضاظتي وجدة جسمي . لان الشمس
بنورها هي الالباء والطهارة والنقي والثورة . ولانها
تسخر من الظلام والعقل ، وتهزأ بالجوهر والعارض .
ويحضرُك نورها وهو الخلاء والغيبة . ولا يتجسّم لك
وهو الملاء والحضرة . فهو للعدم احتقارٌ غاية . وهو

كمال الخيال والامنية والحلم ...

ثم جئت ، فنظرتك . ونظرت فاذا نور
الشمس خيوط او ليت عنكبوت يلمع لعيني . فنفضته
فاسقطته كخبر شئ الحية عني ، وعرفت وجه فرحي
بوجهك ...

وها قد جاءت ساعة السير العظيم والخلق المتين
والفعل . فليدفعنا إلى الذروات الجهد والعزم ويرفعنا
عن الناس . وهات يدك غيلان ثب فوق ذرى
الارض الرواسي ، ناباها ونعلوها ونظر بالسد
كالطير العراسي .

وتأخذه من يده ، فيقوم معها في لين
وتؤدة وقد اكتسى وجهاهما جمالا
بديعاً ، وارتويا ماءً نظوراً ،
وازدادا عظمة في الروح وفي
القامة طولا . وتستأنف ميارى وهي
ذاهبة به من يده تحمله كالموجة ،
فتقول :

ميارى

سنخلق الرياح العواصف .

ونخلق الرعود الزلازل .

سننشئ السد .

وننشئ الحب .

غيلان

(كالمسلم به طائف)

نعم . سننشئ ونخلق . سنعلم هذه الارض الشجاعة

والعقل والبأس والشدة . ونهز أهلها هزاً . حتى

يتوبوا من الهزال والجبن وكره المياه وحب القحط

ويعرضوا عنها . وسنرسل فيهم كلامنا وروحنا سيلا

جُحَافاً حتى يعلموا قوّة الروح ويدعنوا إليها .

ونستخدم نبيّهم ورجالهم ونساءهم وحتى صاهبّا هم

وما لها من قدرة . ونسوطهم كالبعال حتى تدمى أيدي

آلهة الهزال والقحط في إقامة السدّ وخدمة ما اراد

الانسان من خلق . وننفخ في كل شيء حياة ، ولتقومن

الصخور بنفسها فتطير فتقع مواقعها من السد طوع
عزمينا. لتفحّص عاصفة هولا. لننشئن ولنخلق خلقا.
لان القوة والوثبة فينا.

يذهب غيلان وميارى في غبار القمر
المذهب ، وحرير الليل اللذيذ
الرطوبة .

ميمونة

(وهي تشيعهما بالنظر وتهزأ مرّا)

سيخلقان الرياح العواصف.. ويخلقان الرعود الزلازل..
سينشئان السد.. وينشئان الحب...

فعلى اهل الخيال اللعنة !

وتنفجر ميمونة بكاء عويلا ...
ساعة طويلة . ثم تهدأ فلا يسمع
بعدها الا البغل بجانب الخيمة يخفق
بأذنيه ويفكر فيما قُدِّر له بين البغال
من شأن ...
وتتوسع الليلة ...

المُظَرَّاءُ السَّابِعُ

بعد المناظر السابقة بأربعة أشهر ،
في مكان آخر من الجبل . مكان ذي
غبار مشتبك كثيف . نباته شائك
شَرُود . تمرّ منه العقبة صاعدة في
جانب الجبل وتحتها الوادي وفي
قعره بعيداً السدّ . وحول السدّ
قوّات لا تحصى وحركة ودويّ
وعمل شديد وجهد عرديد تتراءى
للمناظر كالاشباح . فيلَمَح فيها جميع
القوم بنبيهم وأصواتهم وهزاهم
واحجارهم وأيديهم يكسّدون
ويجهدون ، وبقرب العقبة في جوف
الوادي السيل منحدرأ كالغيظ ، أبيض
كالليب ، وفيه صخور كسرب من
الحمير تشرب ...

الساعة الزوال . وعلى العقبة غيلان
وميمونة يصعدان نحو الخيمة وهما
يتحدثان ...

غيلان

الليلة يا ميمونة ليلة الفوز . ليلة الفلاح والنصر . لقد
امرتهم بآخر ما يقتضيه السد من الأمر . وسيضعون
آخر حجر منه قبل غروب الشمس . وهو أقصى ما
رسمت لهم من الزمان ميارى .

ميمونة

(وعلى وجهها مسحة من الشحوب والعلة)
إن أهل هذا الوادي لمن أدهى ما رأيت من المفسدين
الهدامين . واني لأسمع الجبل يضحك لما غشوك به
من البناء الزائف .

غيلان

(مصرًا)

ميمونة ، يا دودتي ويا دائي ، ويا صيحة الحيرة
في روحي ، الليلة الفوز والنجاح والنصر . سترين يا
ميمونة الليلة ...

ميمونة

هذه يا غيلان النهاية ، وقد طويتُ طريقي . واني

لأرى الى بعيد بعيني .أرى ويلا دماراً وثوراً وناراً .
فاسمع غيلان نجيبى : كانت ميارى عتيك وستكون
خسرانا .

الليلة ليلة الحبة والسقوط هويّا .

غيلان

ليست ميارى عتيّا . هي الكمال والحسن . والكمال
لا يُحصى ، وأمر الحسن لا يُعصى .

ميمونة

ميارى غرورك وغيّك ، وعقلك فاقد الشك والرشد .
هي خذلانك من الأس .

غيلان

ذُرانا سماء لا عماد لها . فما شأنى والأسَّ يخدع
أم يوفي ؟

ميمونة

تريد سدك على الهاوية : سماء بلا عماد وفرعاً بلا اصل .
وأنّه قد يقوم البناء على الخلاء لا الملاء . على الايمان

والوهم . كذا النفس اذا ظنّت أنّ طَلَّقت الحَدَّ او
طَلَّقت منه . تأبى الاعانة والاس . . .
وهذا سدك عماده الوهم والزور . واصله
خداعك للنفس . وان ميارى لغيك وغرورك . وانها
إلى ذلك لبهتانك زورك . . .

افلا تخشى يا غيلان ان يغلبك الشوق يوما ؟

غيلان

الشوق الى من ؟ الشوق الى ماذا ؟

ميمونة

لا إِلَهِي ولا غيري . . . الشوق الى الحَقِّ . يوم
يضعف قلبك .

غيلان

اني لنافذ الى ما فوق الحق .

(يضرب على جبهته)

وإني لمرغم هذا القرح هنا أن يلفظ إمكانه قبحه .

ميمونة

وهذا هو الغرور والغبي والبهتان والزور . فليس
في نفسك قرح ولا في القرع إمكان ولا قيح . وليس
الا أنك توهّمت القرع والقيح والقدرة على
الممكن .

انك يا غيلان خلاء . لا إمكان ولا ملاء .
وان الويل لقريب قريب

غيلان

(مُصْرَا)

الليلة يا ميمونة ليلة الفوز . ليلة الفلاح والنصر .

ميمونة

(منصرفة عن الجدل الى الهزل)

اذن نقيم مأدبة . . . لكن اين لنا بلحم ؟

غيلان

(مستكراً)

لا حاجة الى مأدبة .

يصلان أمام الخيمة

ميمونة

بلى يا غيلان . لا بد من مأدبة . فانه ما عظم عمل من
اعمال البشر إلاّ انتهى بين القسح والمِلْعقة . . .
وقد وجدتُ اللحم : نذبح البغل . . .

يقفز البغل ، فتضحك ميمونة . وتتوارى
وغيلان في الحيمة .

المنظر الخامس

بفناء الكهف امام الخيمة، في آخر عشي
ذلك اليوم، والشمس هاوية .

ميمونة وحدها جالسة هناك تنظر الى
جهة السد في أسفل الوادي . ونفسها
ملأى انتظاراً وخوفاً . كالتوقع زوبعة
وشدة تُفعم نفسه الحرارة والسحب
والظلمة .

وتُسمع اصوات كأنها خارجة من
الجبيل ، مؤلمة واسعة عظيمة ، تغني
أغنية كالعذاب تقع في النفس كالداهية ،
وفيها روح عظمة سماوية . يُسمع
الذئب يعوي ثلاثاً . نحيباً أنيناً من
اعماق الكون . . . ثم لا يلبث ان
يصعد غيلان ومياري مُتقدين كالافراح
المتراكبة . . .

وتنتهي الاصوات من أغنيتهما الاولى ،
فتصاعد شيئاً فشيئاً بأغنية اخرى كالرقص

مستديراً • فتسف الاصوات أوّلاً
كالريح على وجه الرمال ، ثم تتعالى
وتضخم . ويشتدّ بها الدوران كشاة
العاصفات تعصف عصفاً . . .

غيلان

ترين هذه القمّة كالابرة؟ اذا انتصبت عليها الشمس
كطاووس فخور أحمق ، فقد وضعت آخر حجرة من
السّد في السّد •

مياري

قد انتهى لنا نهار • وابتدأ نهار غيره •

ميمونة

قد انتهى النهار • وابتدأ الليل •

غيلان ومياري

يا للعمى ! يا لآفاق الآفاق عن الجبن والحكمة !

ميمونة

يا للزّائفين والعُجّز ! يا للهلاك والويل ! يا للخُسران
والخيبة !

ترتمي ميمونة فجأة فتقوم قيام العزم
وتقول في روعة

انظرا ! انظرا الجبل !..

ينظر غيلان وميارى فيقع في نفسها
كالصاعقة

انظرا الجلاميد من الظلمات تهتز وتتقدم . اني لا أسمع
حن السواد .

تسمع الحان متلاطمة داوية حيرى
كلاغصار وعاصفة

انظرا السماء تداعي وتهوي . كالجسر حمل فوق
جهده ...

انظرا الاجسام والاشكال والاصوات تنهار وتدوي ...
إنه لزيئ الثورة والنقمة .

إنه لقيام العواصف والزاعزاع الصماء .

وإنه للخسران والحياة .

ينشأ الظلام فجأة فينتشر . وتعصف

ريح من الشيطان كانفاس الزبانية او
كالدم والاثم . . .

وتتقلع الخيمة وتخفق بجناحيها وتطير
وتصفق . ويقوم النبات والعِضادُ قيام
النبال . ثم تتوالى زفرات طويلة ،
كأنين في صدر الارض ثقيلة . وينشأ
على وجه الارض دخان كاول اللهب .
ثم تجري ريحٌ صِلاءٌ ^كتنفس
بركان صاعدة خافضة . ويهمهمهم
السحاب وراء الجبل ، ثم يندفع حاملاً
على السماء . فتكركره الرياح
وتتصبه على دائرة السماء كغطاء
رصاص . . .

وميمونة وغيلان ومياري واقفون
ينظرون والرعب عليهم واقف .
وميمونة ترتجف وترتعد . وغيلان
ومياري ثابتان كالصخر . وليس الا
ان تأخذ الريح شعر مياري الطويل
فترسله في الظلمات كارسال البحر
لجسم حساء . واما غيلان فقائم
ثابت لا يتحرك منه شيء ، ووجهه

أحسن ما يكون وأوسع وأجل
وأبعد . . . ثم تقع أولى قطرات
المطر ثقيلة حادّة . فتصفق على الأرض
كصليل الحديد أو كالشتم والصفعة .
وتتمزق السماء جرحاً من النور
أحد من الحاطر . ويظهر الجبل في ضوء
البرق متضاحكاً قائم الصدر متهيئاً
للتحرك . وتتجاوب انفلاقات الرعد
كدبابة حوافر في السماء . ثم يعدو
الرعد إلى جميع أرجاء الكون .
وينفخ فيملؤها قاعاً أثقلت ريحاً .
وتطلق أوطاب السماء ماءً . ويجتمع
الماء والرياح والبرق والجبل والرعد
والظلمة والغيط والنقمة ، فإذا السماء
بسحابها الأسود وحلّ فيه فحّم ،
وإذا الأرض والماء والرياح عجين
والرعد والبرق . . .

وتبرز من الغيب سواعد وأيدٍ كقطع
الجبّال، فتدكّ السماء والأرض والنجوم
والاجبّل . . . وتقوم في الكون
جميعاً ثورة شعواء حمراء صلبة . وكأن

صوتاً همهمةً يرتل : وأمرنا العواصف
والرعد والسحاب والبرق والزلازل
والهَدَّ فانفلقت جميعاً ودوت دويّاً ،
وارسلنا الصاعقة فشقت واودعت حياة
حية ،

ميمونة

هذه العواصف والرعد علينا . أفأنتما خلقتما العواصف
أم صاهباء ؟

غيلان ومياري

خلقنا ترياق العاصفة والصاعقة . بنينا . أقمنا سداً ،
الزوبعة عاجزة أن تُفنيه والصاعقة .

ميمونة

(وقد رأت شيئاً على ضوء البرق)

انظرا . انظرا الجبل يتحامل على نفسه ، ويقوم ويتحرك
ويتقدم . انظرا الآفا من الطيور تجرّه من شعره

أشجاره سوداً . الا تريانه يزحف ويكر كر رحاه
ويطحن السد والوادي؟
يُسمَع دوي هول

غيلان

(لمارى)

انظري السد يتصاعد ! انظري السد يعلو !

ميمونة

السد أشلاء . السد أنقاض تساقط في الهاوية .

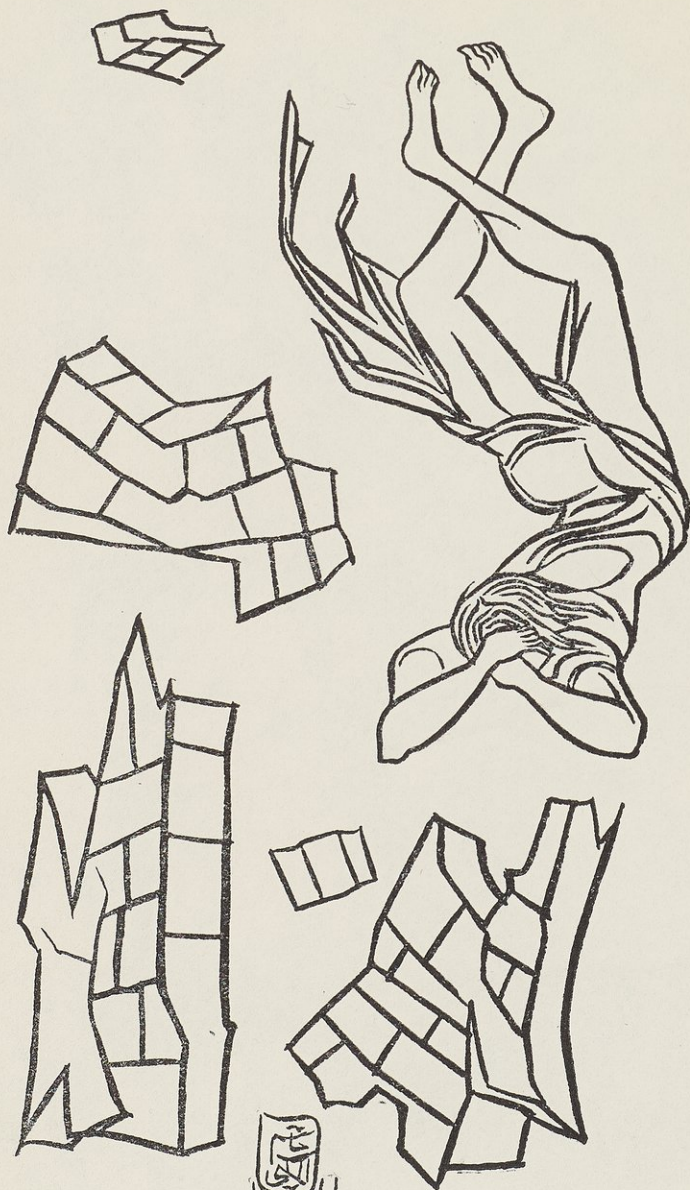
مياري

(لغيلان)

الا ترى سراجاً في منتهى الغاب منيراً ؟ أنظر اليه
يدعونا ، زجاج صفاء وعزم وأمنيّة . انظره قراراً
في الزلازل على الزلازل ...

لكن ما اكثر الغاب اشجاراً ! ما أشد الغصون اشتباكاً !
وما أشد سراجنا طريقاً ...

ياخذها غيلان من يدها



RAMMEKKI

ميمونة
(كالناجية)

انظرا . . . انظرا أسفل الجبل . تحت السحاب . من
النافذة . انظرا الفتحة . انظرا الوهد لاشيء فيه .
والسكون في الوهد والراحة .

غيلان ومياري
(يتعاقبان)

لنعلون برأسينا ولنفتحن لهما في السماء بابا .
يرتفعان وقد طارت بهما العاصفة

ميمونة

تنظر اليهما وقد غابا عنها في
العاصفة

الآن بلغا المنية واستقرا .

ثم تصيح صيحة كتمزيق ثوب
جديد، وتنظر نحو الوهد ثم تقول:

الارض ! هذه الارض اكتشفتها . . .

وتدفع في الظلمات منحدره الى

الوهد . تحسب أنها تدركه فتلوذ
وتلجأ . لكن الوهد يتساءل بعيداً ،
والارض تتحفر الى غير نهاية
بين يديها . . .

ويشهق البغل ويصيح رعباً ويضرب
بالخافر ضرباً . . . لئلا يكتنّه مربوط
بشأنه ، مشدود بصخرة الى الريح
والعاصفة والزلازل والبرق
والصاعقة . . .

انتهى

تالياً من سبتمبر ١٩٣٩ الى يونيه ١٩٤٠

ملحق

هذه « خواطر » كُتبت في العهد الذي كُتب فيه
« السد » او بعده بقليل ، ونُشرت في احدى المجلات .
حملتها بعض شوارد الفكر حول « الوضع الوجودي » كما
قد تصوّره - او بالاحرى يجده في اعماق الوجدان -
« المسافر » ، أعني المتنقل بين اطوار انسانيته ، الممتحن
لها ، السابِر لاغوارها ، المَحْص لصحيحها من زائفها ،
الطالب لايقاعها الموزون ، المتجسّب لاضطراب أوتارها ،
الباحث - في الجملة - عن قرارها كما ينبغي أن يكون ،
إن كان ...

وقد رأيت أن الحق ذلك هنا بـ « السد » ، لِمَا قد
يجد القارئ بين هذا وذاك من صلة تكون له هدياً ...

المؤلف

من روح الشرق

المسافر

« اعلم أن اليقظة التي هي لنا بالحس هي النوم ،
والحلم الذي هو لنا بالفعل هي اليقظة »
(أبو حيان التوحيدي)

دفعته ضرورةُ المساء آخر عتمة يوم من أيام الصيف ، وقد
جاءت ليلةٌ لآءٌ من زجاج . فاذا هو يجيء الجبل ظاهر المدينة ،
ويدخل الحديقة ويقوم تحت القبة ، وقد أسقط في نفسه وجاءها
الاسلام . ويقول : قد شوشت دواليب ، وانقضى توق ،
وانقصمت أوتار . ولقد مات ميت ...

ويذكر عهداً له طويلاً قضاه في البحث والطلب والجوس .
اذ قالوا له : سل الشرق سرَّ الطمانينة والحلم . واذ قام فصار
في طرق الشرق وثنائاه ، فجاب من بلاده اليباس والرطب ،
وذا الزرع وغير ذي الزرع ، والفضاء والصحراء ، والسهل
والحزن والنخل والوادي . ودخل القصور الجنان وفاخر الامصار
ووضاح المدن . فما كان فضاء من قحط ممدود ، ولا مسجد
وصلاة ، ولا جملٌ وسكون منيخ ، ولا مقبرة وبياض قبور ،
الا سألها سرَّ الطمانينة والحلم . واطال السؤال واكثر مدَّ اليد

والحّ والحف حتى لقد ظنّ مراراً أنه فاز بالسّرّ والطمانينة
والحلم . ثم اذا هو تقوم له بعد الظنّ مآذن المساجد نقيّة
صاعدة كالنبال ، فاذا التوق يقوم واذا الطريق والجوس تعود...

كذلك سنتين في سؤالٍ وحاجة ورجاء في الفوز .

ثم يجيء هذا المساء بالليقظة والموت : بشوق النفس وقد
خان وخوى ، والطريق وقد طمست عَمَى ، وقد امتنع الحلم
والاطمئنان نأى . ويحدث نفسه : « ومع ذلك افليست
الطمانينة والحلم واضحة السّرّ بينة الطريق ؟ اليس أنّها..؟ »

« بلى . انها نوم من السماء وروح . وبراءة من الحركة
والجهد والعناء . وحلولُ الدعة والعدوّ والسكون . فالاسلام
بها اسلام واذغان . والحي بها جسدا وروحا قرار واعتدال .
لكن لا هي طمانينة « ابولون » الاغريق تمسك يده عنان
الافراس الجامحة ولا ترتعش ولا تألم ، وتعطي طمانينته علي
باطن التقطع ودفين الداء ولا يحترار ولا يوجع . بل سكون
الرخام . طمانينة الرخام يقوم ويقاوم ويثبت ولا خلجة في
القوام ولا اختلاج . كذا ألحان موسيقى الشرق ، وكذا
خطوط نقشه ، راجعة عودا على بدء ، ولا حركة ولا تحول
ولا انتقال - ولا هي الجبن ولا العجز ولا التسليم للقدر ولا
القول بالجبر . بل القرار الاعظم : قرار واجب الوجود . قرار
الكون وادعاً الى سننه في اكتفاء ورضى . ولتكن الدنيا
خضماً من هوج العناصر هيّج القوى ، فلن تحرك من الشرقي

ولا هو يبالي بها . فهو يعلم أن لا تحوّل ولا تقلب ولا جديد ،
 وأنه ما من شيء الا وهو الى غيره من وجه منتسب ، ومنه
 نسخة وصورة ، واليه عائد . وما حوّل رقص راقصاً عن نفسه
 قط وان هو حوّل صورته ولونه بالوان واكثر جسده . لكن
 الراقص يعود في آخر الرقص طاهراً خالصاً تاماً الى نفسه .
 كذا فلتقلب الزعازع من الدنيا ولتحولها تحويلاً ولتكثر منها
 اكثارا ولتقوض تقويضاً . فلن تحير من الشرقي باسماء وادعاء
 موقنا بأن الاعراض لا تذهب بشيء من الجوهر ولا تحيي
 بشيء : يقيّن الرخام . حكمة الرخام .

فالرخام والشرقي يعلمان أنهما دائمان باقيان ، وأنهما
 غالباً الدهر وأفنيا الزمان . فالزمان بالحركة : عنها يتولد وبه
 تقاس . والحركة تحوّل وانتقال وفساد وزوال ، تاكل وتقني
 وتحرق وتبيد : من الاجرام ومن الاجساد ومن النفس والفكر .
 بل انظر النفس وحركتها ، والفكر وحركته ، وما يلقيان من
 نصب مشاكل الروح والحياة ومنغلق العضلات ، كالرحى اذا
 دارت على قطبها ولا طعام وترحي ، فججعة وحركة مبيدة
 وأكل حجر لحجر . واذا سكنت وسكن الحجران كلاهما
 على الآخر ، كان التطابق والاتفاق ، وانتقى الاكل والفساد .
 وكذا الشرقي في اتفاقية والكون ، وسكونه اليه ، واتحاده
 به . وللدوام جزاء السكون والدعة والبقاء ، وللأبد .

وهذا هو سرّ بقاء الشرقي ودوامه على الدهر : هذا النفي

لكل حركة واضطراب ، وهذا الخلاص من كل زمان . تنفيها
وتخلص منها أهرام الفراعنة واطمئنان « بوذا » وإيمان الانبياء
وحتى طمانينة التونسي لا يحتار ولا يتكدر ولا يألم لعالم
ترعزه الحروب والانقلابات . وهل اعلى واسمى من هذا
التمسك والتمالك عن حيرة النفس ، وهذه الثقة بالحكمة ،
وهذا الثبات للتحوّل والتقلب ؟ وهل اعظم من هذه الحكمة
تمحو الاحداث الزائلة وثبتت ، وتبيد الاعراض وتبقى ، وحدها
قائمة الذات ؟

ولكثيراً ما تبيد من ألم الانسان ! فهي تنفي بشري الخيرة
عن الانسان ، ومأساة الصراع بين الكيان الناقص والكيان
الكامل . فلا الشرق يعرف « ديونيزوس » يألم أنه كالفراع
عُضد عن أصله ، وأنه وحيد مقطوع . ولا هو يعرف مأساة
« ديونيزوس » يجهد ان لا تبقى حياته الفردية فرعاً مقطوعاً
من حياة الكون وان تعود له الصلة باصله فيتحد مع الكيان
وروح الحياة المطلقة الكبرى . فما انقطعت صلة الشرقي
بالكل المطلق ، ولا هو حدّته احوال ولا حصره زمان : وليد
اللا نهاية والاطلاق ، في الله حي ، عائد الى الله . وما انحصر
بشر في حدود البشرية الا جاء الالم وجاء العجز وجاءت مأساة
شأن البشر في الحياة ، وما حدّته حدود أفق الانسان . لكن
الشرقي غير محدود ، طالق من ظرف البشرية الى الله : فيه
يحيا ، وبه تنفتح له او ساع الاطلاق ، وبه يسلم من ألم

« ديونيزوس » ، ألم الحد والفراق والوحدة والانحصار .
كالخيران الخالي الى غار جبل يتيه روحا في فضاء الصحاري : قاعا
صفصفا في قاع صفصف . فاما أن تميته الوحدة وانحباس النفس
في النفس ، وخلو الروح في قشرة البشر ، والشعور بضعفه وانفراده
وحقارته في الكون . واما ان يتسع ويطلق وتسري في روحه
روح الكون وروح الاسلام وروح الله . كذا الحلاج وكذا
الغزالي وكذا غيرهما ، سلموا اذا انكروا البشرية وانتسبوا
الى عالم الوجود المطلق : عالم الله . وما قصر الحلاج ولا
الغزالي ولا ابن الفارض عن سواهم فكراً وحيرة وتيهاف في
المعضلات ، ولا هم عمدوا الى التصوف وانتقطعوا الى الوجود
المطلق عجزاً عن الفكر وعناء تفكير البشر . وانما هو الفكر
يبلغ بصاحبه أقصاه ويقتصر فيه المفكر على العقل ، فلا يكون
منه الا ان يفضي به الى الوحدة والى العجز عن بلوغ الحق
بالتعقل والعقل ، ويشرف على اول افق اليأس والقنوط ، ويكاد
ان يأخذه دوار الخيرة ، ويخاف ان يقع فيه . فاذا الخوف ياجئه
الى ان يعتمد الى العلويات : يولدها له عجزه البشري ويسلم بها
من ان يغلب ويقهر . كذا ينتسب الى الآلهة عَجَزَ البشر .
فاذا العجز قدرة واذا سرّ طمأنينة الآلهة مفتوح .

بكل ذا يحدث المسافر نفسه وبانه يعلم جد العلم ما هي
هذه الطمأنينة وهذه الحكمة الشرقية . ولطالما مدّ فيها الى
الشرق يد السؤال . ولطالما الخف في ذلك . ولطالما حسب بعد

التصبر والتطلب وتوطين النفس أن الشرق رزقه اياها وتصدق بها عليه . ولكنه ينظر في هذا المساء فاذا العطية كاذبة واذا الصدقة كاذبة واذا الحساب خدعة . واذا هو يجد في نفسه أنه لم يفز من هذه الطمأنينة الشرقية بشيء قط . وينظر فتعاوده ذكرى آخر ما قطع من مراحل سفره الطويل :

فهو في قرية «كسرة» على جبل جلا ميد من الصخر كقطع العذاب تتراكم وتتراكم ، ثم يقوم فيها فجأة كالجدار جانب الجبل عاريا كجنب مقروح ، تنشج في اسفله عين ماء باكية تسيل الى الصخر ، فتاكل من اصل الجبل ، ثم تقع الى الغور تحته فتشتت فيه وتضيع كياس نفس عقلم . وتبثغر بيوت القرية بين الصخور حقيرة بشرية ذلة مسكنة كشمسة في وجه قوة قاهرة او عار على جمال . ويتبسط فوق القرية على رأس الجبل بساط غليظ من حصى حديد عليه اغربة سود . وفوق القرية والجبل والبساط والاغربة السود هول فضاء اوساع السماء . وينظر المسافر حوله فاذا الجبل قافلة هول من اشخاص حجارة ، كل له ألم ، وكل له قصة جلبة ، والاذن تسمع وعين الماء تحكي . وتنشأ الحياة ويتحرك الجبل المأساة وتتحرك الصخرة الفيل والصخرة الدب فقطأ وتدوس ، وتتفرقع اوصال الجبل ، وتصوت احشاؤه يعصرها عصرا ليخرج ماء وعينا . ألما كألهم الارحام لدى المخاض ... والسماء فوق ذلك مقوية مقفرة خالية .

وذا هو رمز المسافر نفسه : خلت سماءه وأقفر ، واعتمل
روحه وفكره ، وتألم وعصر احشائه عصرا .

ثم هو في قرية «مكثر» يجول ضواحيها ويقف عند قوس
نصر روماني ، عمارة في الاثير قُدَّت في السماء والزرقة .
فينظر فاذا حجارة القوس تتباعد وتتصاعد في لين وهوادة ، وتترامى
ويترامى القوس الى أبعاد الفضاء ، فيدخل الناظر من القوس الى
السماء كأنه جعل اليها طريقا معراجاً ولها بابا .

وذا ليس من المسافرين في شيء : ذا رمز الشرق اللاحق
بالسماء .

وها تعاود المسافر ذكرى عروجه الى السماء من القوس ،
فيعجب منها ويكذبها عقله ويقول : ما كان عروج . ولقد
كان العروج . ولكنه كان في يسر بسيطاً ، كأنه بالطبع حتى
ليبعده العقل وحتى ليكذب . وها ذا المسافر يشرف على افق
مالا يدرك بالتعقل ، وكأنه الحبط والجنون ، وما هو بالحبط ولا
الجنون . فيدرك ان طمانينة الشرقي وحلمه مما لا يتعقل فيه ،
وانه إن خازنه الجهد اليه وكذب امله فيه واستحال عليه فذلك
انه لم يطلبه قط الا من وجه التفكير والتعقل . وليس تدرك
طمانينة بالعقل والجهد والفكر . وما هي الا ان يكون الحي
كيانا أملاً كيان ارفقه ، طاهرا من التعسف والتوتر والاستداد .
فليس في الكون اضطراب ولا تكليف ولا عسف ولا شيء
يرغم الى شيء : فلا قمر هذه الليلة الواضح يجهد جهده ان

يكون وان يضيء . ولا هذه الليلة العذراء تجهد جهدها ان تكون وان تلتطف وترق . ولا بجيرة هذه المدينة تجهد جهدها وتكاف ان تتلأ بالألاء القمر وان تتأخى على صفحتها الانوار والظلمات . ولا شيء من هذا السكون وهذا الرضى وهذا المأ يجهد اجتهدا الى السكون والرضى والمأ . لا تكلف ولا تجهد ولا تصنع . بل ذاك هو الطبع والاتفاق والمطابقة والاتحاد والوصال ورضى الكل بالكل . ذاك مقدار ما يوجب الكون على الحي من جهد الى الكيان : مقدار جهد الكائنات المطمئنة راضية مرضية . لا جهد الصراع والمقابلة ، ولا جهد عامل المناجم يقتطع احشاء الارض وينهب ، ولا جهد « برومتي » يجهد ان يطلق من الاغلال ، ولا جهد الزورق البخاري يجر الباخرة العظيمة يدخلها الميناء ، ولا جهد الحي النهم الاكول يقع على مائدة الدنيا فيأكلها أكلا . وانما هو ان تفتح النفس للكون وان تكون اليه منتبهة يقظة وعنه راضية وبه واثقة وله مسلمة : هبة الحي نفسه للحياة . هبة الوجود المطلق للحي الطمأنينة والسعة والروح .

وتتسع عين المسافر الى المدينة وينظرها ، فاذا هي كالبحيرة الرصاص واقعة الى نفسها قائمة هادمة هادئة كرقاص الساعة الساكنة . واذا عينه لاول مرة تنظر وترى فلا تجهد ولا تنصب

في النظر والرؤية ويشبعها النظر والرؤية... وإذا وقارٌ وعظمة
وهدوء وقرار .

وينحدر المسافر مفتوح العين في النوم والحلم . فيكون
انحداراً رفيقاً رفيقاً لطيفاً . ويكون أول عهده منذ سنتين
بالراحة والنوم .

ولا يزال في الطمأنينة والحلم .

تم طبعه بمطبعة
الشركة التونسية لفنون الرسم

في ديسمبر

١٩٥٥

الفهرست



مقدمة

٨ - ٤٧

- | | |
|----|---------------------------|
| ٨ | ١ للاستاذ محبوب بن ميلاد |
| ٢٩ | ٢ للاستاذ الشاذلي القليبي |
| ٤٧ | ٣ للمؤلف |

السرد

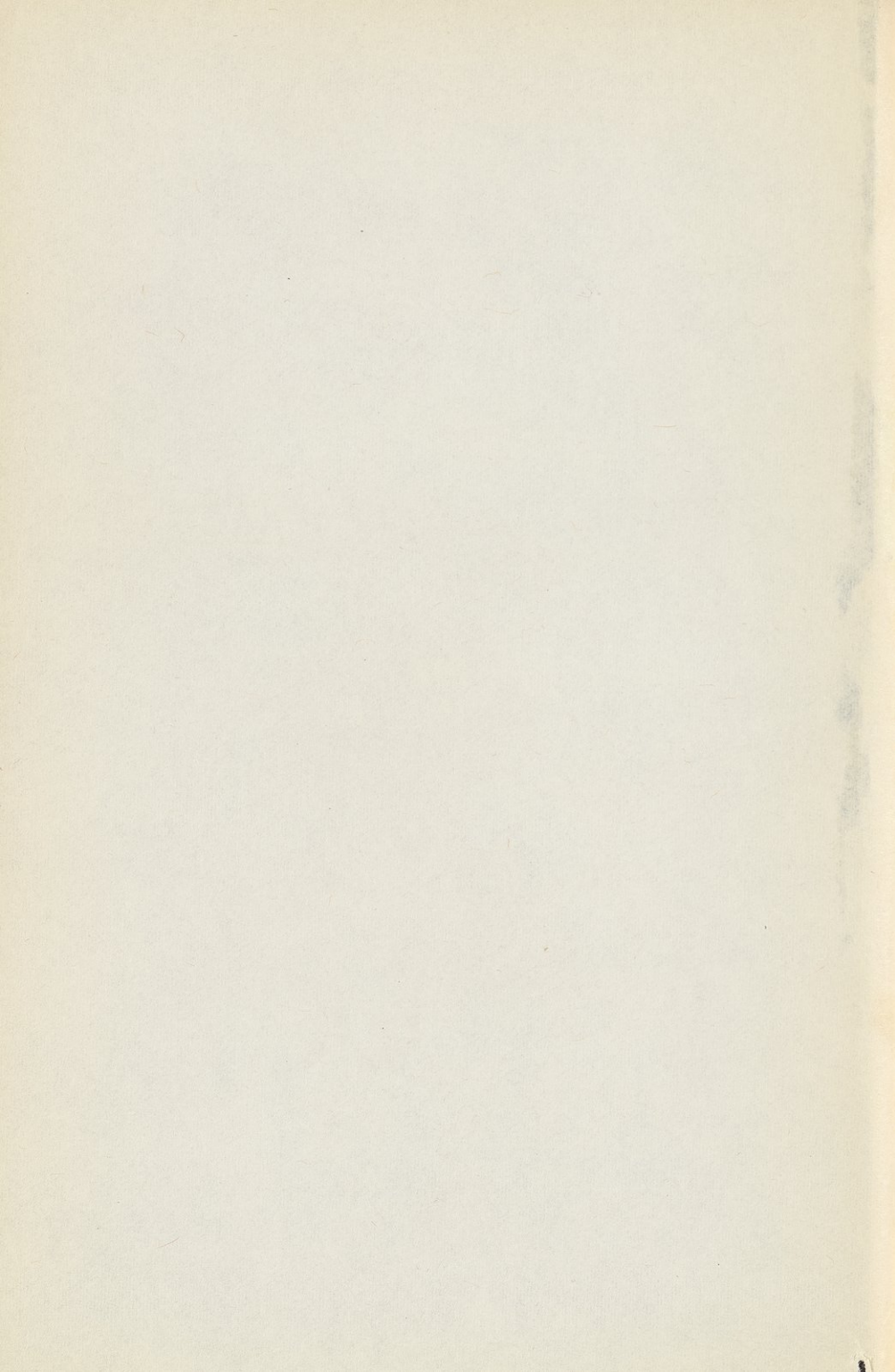
٤٩ - ١٨٦

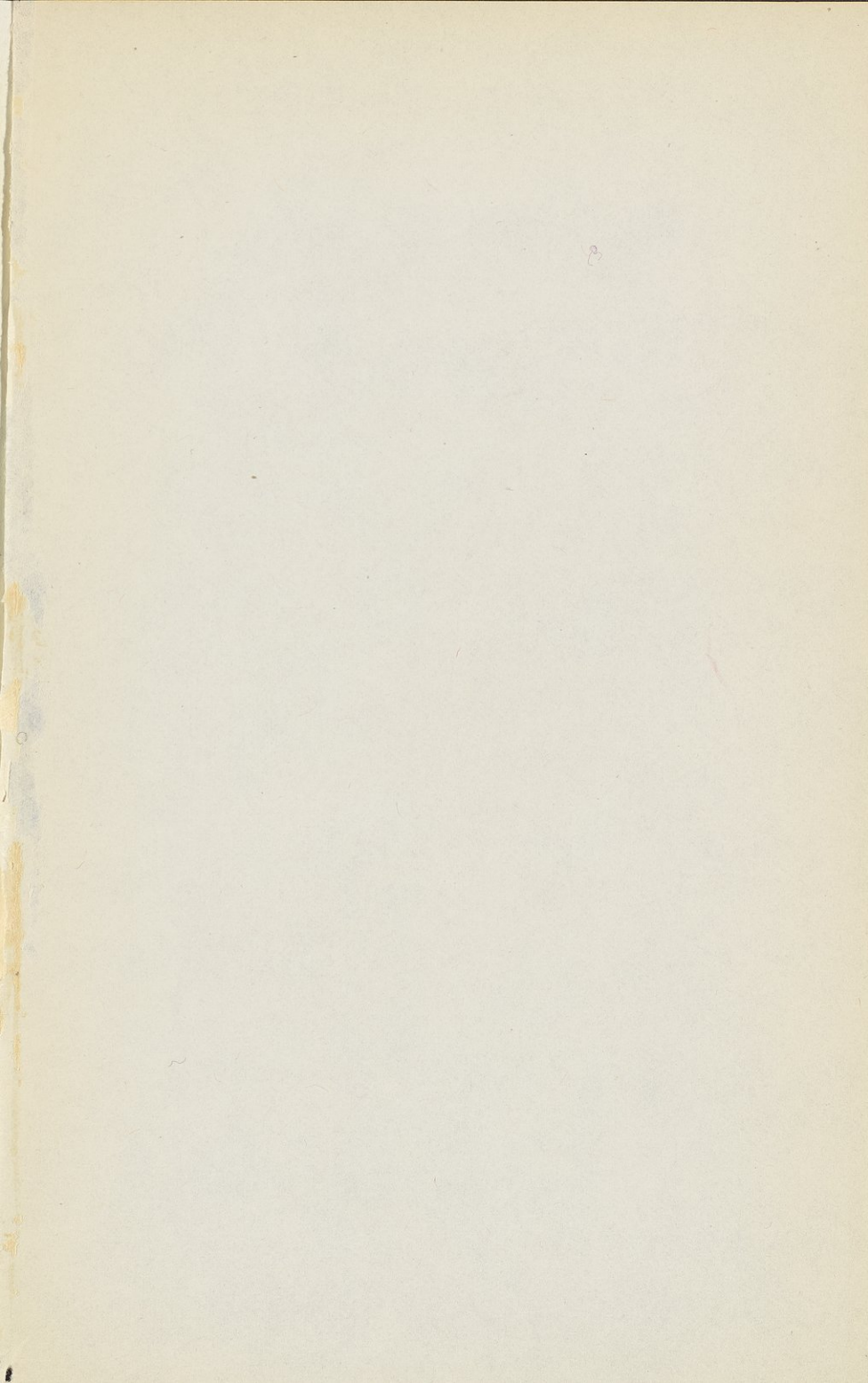
- | | |
|-----|---------------|
| ٥٥ | المنظر الاول |
| ٨٣ | المنظر الثاني |
| ٩١ | المنظر الثالث |
| ١٠٣ | المنظر الرابع |

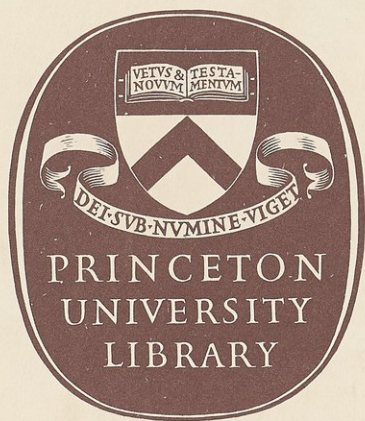
١٢١	المنظر الخامس
١٣٧	المنظر السادس
١٦٧	المنظر السابع
١٧٥	المنظر الثامن

١٩٨ - ١٨٩

المسافر







Princeton University Library



32101 075811776